عصير الكتب

رواية

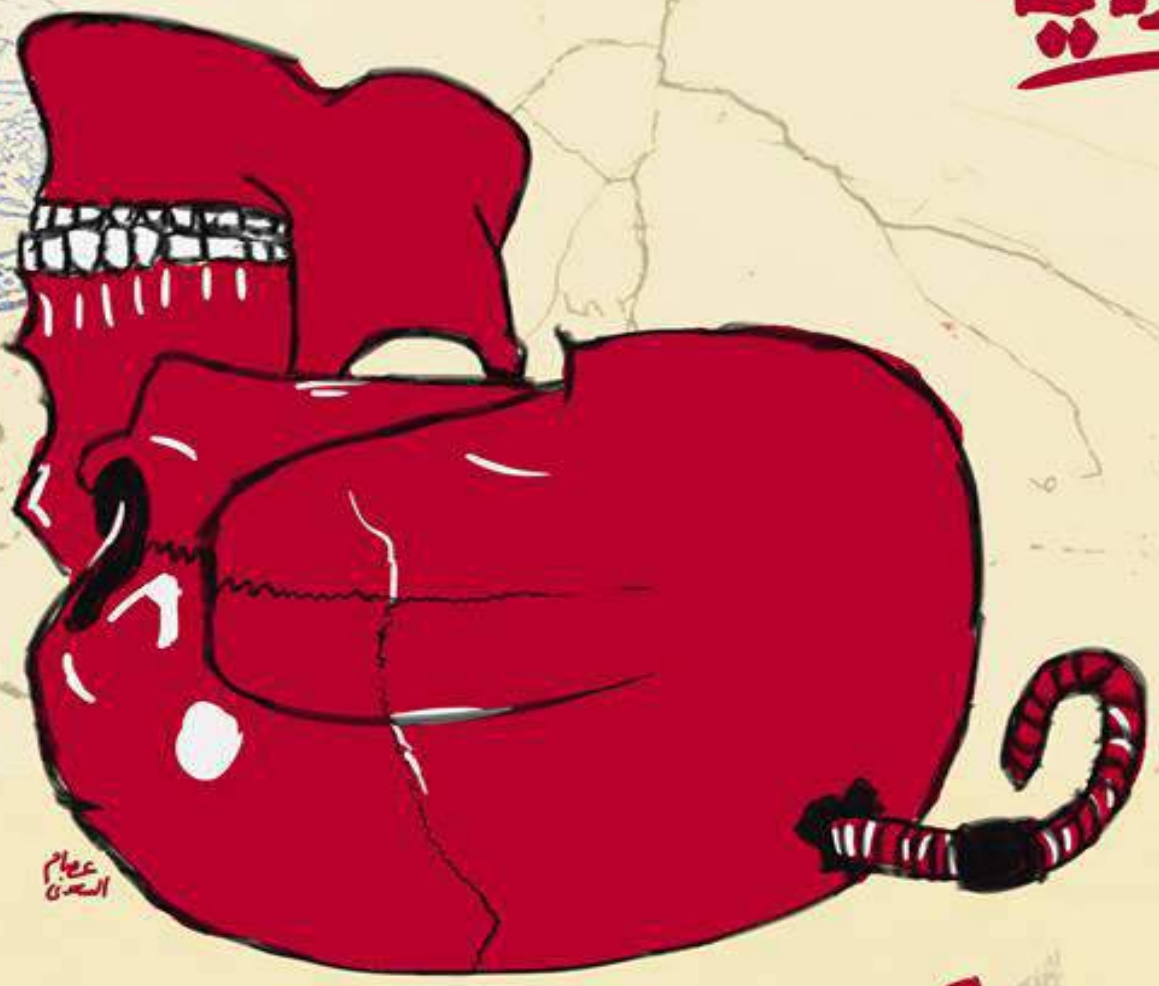

أحمد إبراهيم إسماعيل

مدينة العتمة

مدينة العتمة

رواية

أحمد إبراهيم إسماعيل

مدينة العتمة

رواية

أحمد إبراهيم إسماعيل

تصميم الغلاف:عصام السعدني

تصحيح لغوي : عمر جوبا

تنسيق داخلي :سارة عنتر

- حين لا يتبقى من الفارسِ إلا سَيْفُه، ولا من المذياعِ إلا زَيْفُه، ولا من الكل إلا نَيْفُه، ولا من الكم إلا كَيْفُه، ولا من الرحَّابِ إلا ضَيْفُه، ولا من العامِ إلا صَيْفُه، ولا من الحبيبِ إلا طَيْفُه.. ستجدني.

- وما أنت؟

- أنا "إلا" التي قاومت للبقاء.. وإنني ندمتُ أنني استثناء.

إبراهيم العشّاب

إهداء

إلى الصعالكة والذي مر.. أعتذرُ إن كان الدرجُ خانقًا بعض الشيء، سأفتح به نافذةً قريبًا.. قريبًا جدًا.

شكر..

للإرتجال... ولمصطفى الشرنوبي ومخزن صيدليته وأكواب الشاي البلاستيكية وأحمد سمير وسيارته ومسجد بلال والحجرة الوحيدة بشارع الحسن بن علي.. والواحد وخمسين يومًا.

ليس الغريبُ أنني وصلتُ معهم إلى هنا، الغريبُ أنهم يعتبرون هذا عاديًا، نحن لم نمت بعد هذا كله، لا أدري إن كان هذا جيدًا أم من الشؤم .. النور يمر الآن، البوابة بلا حراسٍ أجمل والبيوت تتلاصق ولا يسكنها أحد.. قلةٌ فقط ويلقبونني بالباقي، ربما في زمنٍ ما تُشغَلْ بأكثر وينشغلون ببعضهم ولا يسمونني أو يسألونني كثيرًا عن كل ما حدث وفاتهم أن يشهدوه، أسئلتهم عن بقايا البناء المكسور في الساحة، وبقايا البيت الأخير الذي وجدوني أجلس عنده كثيرًا فقدَّسوه، وبقايا جذور أشجارٍ لم يروها تنبت أبدًا وسمعوا حكايا طرحها مني، وبقايا القرصِ الكبير والاسطوانات الضخمة وأصواتِ الليل ودهشة المرة الأولى التي سمعتُ فيها عن شيءٍ يُسمى "النهار".. و "ربما" التي سمعونني أتحدث بها لنفسي في مواضع، لقد أحببت هؤلاء الجُددِ كثيرًا رغم كل هذا الإرهاق، حقيقةُ أن يكون هذا هو الطَورُ الأخير الذي أشهده في حياتي هنا أمرٌ مريحٌ بعض الشيء، يفسده فقط خوفي من كونه ليس الأخير وكوني الآخِر، لكن حركتهم وانتظارهم عند البوابة وترديد الأصوات واعتبارهم "ربما" مرادفًا للحياة أزال بعض غمي وذكرياتي عن ماضي الأطوار.. والراحل.

الدار.. لقد أحبوها حين رأوني أجالسها وأبادلها كلامًا لم يفهموه، أسموها دارَ "ربما" ووضعوا لي حجرًا عندها رحمة بشيخوختي من جلساتِ الأرض، هؤلاء الجُدد جميلون جدًا ويبرونني وأنثاي بشكلٍ يجبرني على تمني أن يطول هذا الطور أكثر من سابقيه وأن يكون الأخير، لقد قُتِلَت المدينةُ بكثرة الأطوار وآن لها أن تستريح طويلًا بهؤلاء، فكرة أن ترحمك الحياة في آخر محطاتك وتكتفي بما قدَّمته لها من قرابين معاناتك على مدى عمرك كله شيءٌ مريح، غيرُ عادلٍ لكنه مريح، هكذا فعلت الحياةُ مع مدينتنا وضخَّت فيها هؤلاء بنهاية الأمر، إنهم يرون ويشمون وينتظرون النور والحكايا ولا يخافون الاسطوانات الضخمة وبقايا الأشجارِ والبناء الذي مازال غاضبًا وينتظر العودة، لا عجب أن أفرح بذلك، كان هذا من آثام مدينتنا في الأطوار التي سبقت، أضحك كثيرًا كلما تذكرتُ من سبقهم وما كان من أمر هذا البناء ومُبتداَه وما انتهى إليه بآخر القصة، الحياة سافلةٌ جدًا لتقلبَ الأمور بعقولنا على هذا النحو، لكن هذا لا يمنع أن ذلك يضيف متعةً ما، ربما كُنَّا نحن السفلة حين قنعنا بالروتين.. ربما.

ليته كان هنا ليخبرهم كل شيءٍ يرغبون في سماعه مني، ليته كان هنا ليكون باقيهم الأخير ويعفيني من كل هذا الذي أعقب رحيلَه وتحملته وحدي، مجرد التفكير أنه فينا الآن يجعل من هنا مكانًا أجمل كثيرًا والنهاية أكثر إثارة من هذا الذي نعيشه، ربما ساهم رحيله في خروج القصة بهذا الشكل، الجدد يدينون له بالوجود بشكل ما رغم أنهم لم يروه أو يعرفوا له قصةً كاملة، الترتيب الغريب للحكاية لا يجعلني واثقًا من أي شيء.. لن أفكر كثيرًا رغم أنه سيكره هذا إن كان لا يزال حيًا بمكانٍ ما.

لا أدري إن كان كل هذا قد حدث فعلًا أم لا، هل أعيش الآن معها فعلًا بهذا الطور الذي ذكرته؟ هل حقًا أقدمتُ على ما فعلتُ في تلك الليلة البعيدةِ من هذا الزمن السحيق وفعلنا كل هذا بعدها؟ هل يحيط بنا النور والجدد وبقايا البناء والأشجار وتلاصق البيوت بعد هذا كله؟ أم أنها "أمنية ما قبل الموت" التي أخبرني ذات يومٍ قديمٍ أنهم يملكونها في "هناك" وأنهم وقحون جدًا لهذا السبب، يبدو أنها تضخَّمت لديَ بشكلٍ ما، كل شيء يبدو مشوشًا في الهرم بشكلٍ يجبرك على الشك بشأن حقيقة كل ما مر، حقيقة أنني آخر من تبقى من أمة كاملة هو أمر مرعب، وحقيقة أنني من وُكِّلتُ بسرد الحكاية برمتها هو أمر أشدُّ رعبًا، من الجيد أن تموت مع الآخرين، الزحام في كل شيء مرهق، وفي الموت هو أكثر الأشياء راحة، حين لا يتذكرك أحدٌ فأنت بأمانٍ تام، الذكرى جلَّادة النبيل، هكذا قال لي يومًا ولم أفسِّر وقتها، أخبرني ألا أفتقد أبدًا وألا أبوح يومًا بضعف، في البوح افتقاد أكثر، والذكرى مخلوقٌ ماكر، تبقى أليفة مادامت محبوسة بالداخل ثم إن أطلقتها تتشارَس أول ما تتشارَسُ على عنقِك، قال ذلك أيضًا.. لقد أخبرني كل شيءٍ وعلمني من تأويل الأشياء ما لم أكن أعلم، لكنه أبدًا لم يخبرني ما عليَّ فعله حين أكون الناجي الوحيد.

لا أعلم كيف مرَّت مدينتنا بكل هذه الأطوار دون أن تطويني مع طورٍ منهم، ولا أعلم كيف نشأ كل شيءٍ من العدم مجددًا على هذا النحو، حين يمر كل ذلك عليَّ أقنع نفسي أن شيئًا من هذا لم يحدث.. أنا مُسنَ ووحيد، أنا بالتأكيد مُخرِّفٌ بطريقةٍ ما، أنا غير مُحاطٍ بشيء وهؤلاء الجدد وهذا النور وهذه البقايا من كل شيءٍ لا وجود لها، أو ربما هو نفسه لم يمر بحياتي أصلًا ولم

يخبرني كل ذلك، ولم يترك لي وصيةً كانت كفيلةً بتغيير تاريخِ المدينة بهذا الشكل، لو لم أكن مخرّفًا.. لكم وددتُ لو أنه لم يوصني ويجبرني على التنفيذ وفعلِ ما فعلت، كنتُ سأموتُ سريعًا في الماضي معهم وينتهي كل شيء.. كنت سأموتُ في الزحام.

لم يكن ما حدث في هذه الأيام البعيدة لائقًا به قط بعد هذا كله.. نهايةٌ كهذه لم تكن ملائمةً له ولا للقصة برمتها، لقد رحل في الوقت الوحيد الذي كان عليه أن يبقى، وثار في الوقت الذي احتجناه فيه أكثر من ثورته، قاده تهوره وحلمه وخذلانهم له لهذا المصير الذي لم يعلمه أحدٌ حتى الآن – حتى هي- رغم كل تلك السنواتِ التي مضت، وكل دقات الجرس التي استمرت بالصراخ والتي لم تستمر، هو لم يُنسَ، وهذا دليلٌ على أنه أضاف شيئًا ما، صحيحٌ أنني الكائن الوحيد الذي كان يؤمن بذلك، وصحيحٌ أنها آمنت لاحقًا وصحيحٌ أنه لم يبقَ منهم غيري ليؤمن، وصحيحٌ أنني لا أعرف هذا الشيء الذي أضافه، وصحيحٌ أن هذا لن يغير في تلاوة القصة شيئًا.. لكنه فعل، أشعرُ أن شيئًا ما بقلبي يريد أن يراه الآن ويخبره أنه لم يكن يستحق كل ذلك، هذا دليلٌ على أن ترحاله لم يكن خاطئًا جدًا، وأنه رغم كل ما كان لم تكن "ربما" التي قالها يومها.. خاطئة جدًا أيضًا.

لقد آذوه جدًا حتى أتاهم الطاعون، الغريبُ أنه لم ينسَ أن يقذفني بوصيته تلك ليلتها، لقد كان مؤمنًا بشكلٍ مخيف بهذا وألقمْنِيه كحجر، كل آخرٍ قاتل، البسمة الأخيرة، الكلمة الأخيرة، النظرة الأخيرة، الوصيةُ الأخيرة، لهذا نعتبر الموتَ أكبر المصائب وأكثرها رعبًا لأنه يضم كل هؤلاء في لحظة.

رغم كل ما حدث وكل من هلك في هذه الأيام ما زال السؤال لم يغادر رأسي بعد.. لماذا لم يأتِهم الطاعون قبل أن يرحل؟ هل هو من أرسله من هناك حيث هاجر انتقامًا لكل ما حدث؟ أم أن الطاعون كان يخشاه فانتظر مغادرته وأتى؟ لقد حدثني يومًا ما أن العالم كله سيخشاه ذات يومٍ حتى أجنة البطون، لم تكن ملامحه تخبرُ أنها لا تؤمن بذلك أو تنطقه تيهًا فارغًا، لقد كان صادقًا

بشكلٍ مخيفٍ مثل القلب الذي أكلناه سويًا في اليوم ذاته خلسةً من القوم وأخبرني أنه قلبُ مُحبّ، حين سألتُه يومها كيف عرفتَ أنه قلبُ محبّ قال هذا قلبٌ سهلُ البلع.. هذا دليلٌ على أنه مُضِغَ قبل الآن إما بحبٍ لم ينله أو حربٍ لم يظفر بها، هذا عاشقٌ لم يُعشَق أو محاربٌ خانوه، قلتُ إن به جزءًا ما زال ينبض، قال هو كلاهما.. هو كلاهما.

لا أعلمُ من عليَّ أن أفتقد الآن إن كان عليّ أن أفتقد.. هو أم هم، غرابةُ أطواره أم روتينيتهم، ثورته أم بقاؤهم بسلميتهم أطول، رحيله أم استمرارهم، كلامه أم صمتهم؟ الليلةَ التي اعتلى فيها السور أم الليلة التي سجدوا فيها للصنم، سُكْرُه بالدم أم سُكْرهم بدونه، مصيره الغامض بعد كل هذا العمر أم مصيرهم المعروف بعمر العمر ذاته. كل شيء يبدو رماديًا حين تريدُ أن ترى، وكل شيءٍ يبدو أخرس حين تريد أن تنصت، وكل شيءٍ يبدو متمردًا عليك حين تهرم، هذا قدرُ الذين يعيشون طويلًا ولا يموتون قبل أحبتهم.. مساكين بوصولهم، بلهاء لأنهم لم يقتلوا أنفسهم لحظتها وسمحوا لقلوبهم بكل هذا النبض بعدها، الذكرياتُ التي تصل معنا إلى هذه الساعات الهرِمة هي فقط ما يستحق أن يبقى ويُحكى للصغار ويصحبنا إلى العالم القميء الذي حدثونا ذات يومٍ بوجوده في مكانٍ ما.

بقية الأحداث التي نسيناها لم تكن إلا مساعدًا لهذه الذكريات لتصل إلى هنا رغم حماقاتنا سابقًا باعتبارها الأحداث الجِسام، لقد قال كل هذا يومًا حين أكلنا قلبًا يابسًا وأخبرني أنه قلبٌ ألِفَ الفقد، حين أخبرته بجوعي وأنني لا أهتم لصاحب القلب ولا من فقد، ابتسم وأخبرني أنني سأعيشُ طويلًا وأنسى كلَ شيءٍ في الهِرَم، ولن يتركونني أعيش وأصل إلى هناك، ليته صحبني إلى "هناك" تلك الآن ليعترف أخيرًا بخطأٍ له ويعتذر، كان نبيلًا بما يكفي ليفعل ذلك دون أن يوبخني كما اعتاد، كان لا يأكل إلا القلب، القلب فقط ويدوسُ ما سواه، حين سألتُه عن السبب قال لأنه موطنُ الداءِ والهَلَكَة، إن كُسِرَ كُسِرَ صاحبُه، وإن جُبِرَ جُبِر، هذه المضغة قادرةٌ على قتلِك وخلودِ حياتِك في آن، قاتلٌ رحيمٌ ورحيمٌ قاتل.. لقد قال ذلك الكلام الذي لم أفهمَه.. في النهاية رجَّحتُ أن كل هذا ربما يعني "طعامًا لذيذ الطعم" بلغةِ "هناك" .. ربما.

لم يكن يعلم عن نفسه أكثر من كونه لا يحب الطوابير، ولا يصدق رواياتهم عن العالم القميء والعالم الجميل، ويصف الجميع بالبلهاء، ويحب التخفي ويتقنه، ويتحدث أكثر من العشرين كلمة المقررة، ويفخر أن ماء الشيطان الأحمر يسري به، وأنه كان يحب السِكّير أكثرهم، وتُرهِبه لياليه عند النحيف الذي يخاف منه ويقضيها هناك بإرادته، وأنه المواطن رقم ألفين في شعبٍ تعداده ألفان وواحد، كان يرى نفسه أحق بالرقم واحد ولم يكن أحدٌ يرى فيه أفضلية غير أنه أفضل مني.. فقط لأنني المواطن رقم ألفين وواحد.

أنا صديقه الوحيد.. قال لي هذا ذات ضعفٍ لم أعهدْه فيه كثيرًا طوال مدة معرفتي به، لا أعلم لماذا اعتبرني كذلك من بين ألفي كائن، أغلب الظن لأنني المواطن الأخير بالدولة وهو بالمركز قبل الأخير، أنا الوحيد الذي يعتبره الجميع أسبق مني، أنا من أنقذته من لقب الأخير الذي ظل يكرهه طويلًا حتى أتيتُ أنا إلى العالم، في الواقع لم يعنِ لي هذا كثيرًا ولم أكرهه بسببه، كنتُ أرى فيه شيئًا أكبر مني ومنه ومنهم، شيئًا مثل الحبِ ومثله.

" حين يرسمون لك سبعين طريقًا للسير، سِر نحو الصحراء البعيدةِ التي من المحتمل أن تموت قبل أن تصلها ودعهم ينعتونك بالمتخلف، هناك ستجدُ الطريق الواحد والسبعين، هذا هو الطريق الصحيح " .. كلامه كان غريبًا عن دولتنا، وكان الجميع يعتبره مجذوبًا ويروون الحكايات عن ما سيواجهه لاحقًا من عذاباتٍ بالعالم الجميل، استطعت سماعَ كل ذلك لاحقًا. " هذا الوطن واسعٌ جدًا ليسعَ ثروةَ حاكم، وضيقٌ جدًا ليخنق حلم طفل " .. لم أعلم معنى هذه الكلمة " وطن " .. لاحقًا اعترف لي أنه سمعها من رفيقيّ إبراهيم الذي جاء.

إبراهيم.. اسمٌ غريبٌ طالبني أن أناديه به، لم يسبق لأحدٍ من الشعب أن نودِيَ بغير رقم، المواطن ألفان قرر في هذا اليوم أن اسمه إبراهيم وحدَّثني أن الاسم راق له، صاحب الاسم يبدو أنه كان غريبَ الأطوار مثله، أخبرني أنه جاء إلى مدينتنا قبل أن أولدَ أنا.. حينما كان هو المواطن الأخير، لم يصحبْه إلى هنا غير رفيقان تركاه عند البوابة ثم كتبا بعض الأشياء كعادة كل المرافقين لزوَّار المدينة.

قال إنه سمع كاتب الكلمات يجهر بها قائلًا " لم يكن لديَّ الوقت لأرحل بشكلٍ يفتقدونني بعده.. في الواقع لم تكن لديَّ الرغبة " .. الوطن و " التي " وهناك والمنع والغالب والحائط.. سمع كل هذا العبث من حديثهما عنه وظل يردد لي الكثير منه في لاحق السنواتِ دون أن أعي منه شيئًا، لكنني أحببت سماعه، كان متفردًا في حكيه وسبابه وسخطه ورغبته في الرحيل عنهم مرةً بعد مرات، لقد افتقدتُ المواطن إبراهيم وتفرُّده جدًا وأنا الذي لم يفتقد يومًا، قصته فرضت ذلك، ولم تكن لديه الرغبة في أن يفتقدوه.

"من.. من نحن؟ من نحن بالضبط يا إبراهيم" سألته في الليلة الأخيرة بعد وصيته التي أوصلتنا إلى هنا، سألته وصمتَ قليلًا.. وبعدها انكشف كل شيء.

الفصل الأول

مدينة العتمة.. حين لم نعلم ما تعنيه " العتمة " أخبرونا أنها عكس النور، وحين تساءلنا عن معنى النور قالوا أنه شيء شرير لا يجيء إلى هذه الأرض وتحمينا الحكومة منه، لاحقًا أخبرني المواطن ألفان أن العتمة تعني اللون الأسود، وحين سألته ما معنى هاتين الكلمتين قال يعني هذا الذي نعيش فيه.. لا نرى شيئًا.

نحن نتغذى على شيء يسمونه الجوع، حين يأتينا هذا الشعور مع غياب الطعام حيث عدم راحةٍ بالبطن ورغبة فيما غاب عنا.. أخبرونا أن هذا الشيء يسمى الجوع وأنه من خلقِ الإله الرحيم وأنه خلقه ليمنعنا من الموت، في الشتاء تعمل الحكومة على تدفئتنا بالبرد، حين نشعر بحاجة للماء يروووننا بشيء أسموه العطش، والألم جعلوه لعلاج المرضى في الأوقات المختلفة من العام، الحكومة تبذل مجهودًا خرافيًا لضخ كل هذا الخليط الذي سخَّره الإله الرحيم بهواء مدينة العتمة كل صباحٍ من مضخات ضخمة عند البوابة يصطف تحتها جميعُ المواطنين.

مدينة العتمة هي الجزء الجميل الوحيد من العالم القميء الذي قرَّر الإله وضعه بالكون ووضعنا به بعدما خلقنا من رحمته وصبره وبعض غضبه، الإله الرحيم هو أعظم ما في مدينة العتمة، لقد وهبنا الجوع لنأكل، والعطش لنشرب، والبرد لنشعر بالدفء، والألم للعلاج، الإله رحيمٌ جدًا وسيرزقنا المزيد من الجوع والعطش والبرد والألم حين نذهب إلى العالم القميء، هذا وعده لنا.. ونحن بانتظار ذلك ونسعى إليه.

من حين لآخر يأتينا بعض الزوار الذين يتركهم رفقائهم عند البوابة، يضعونهم ويمضون ثم يذهب الحرس بالزائر لقصر الملك حملًا، في بعض الأحيان يُكلَّف الشعب بالمساعدة في الحمل إن كان الزائر سمينًا بعض الشيء، وبعدما يمكثون هناك بعض الوقت تدعو الحكومة الشعب للطعام على بقاياهم بالساحة الرئيسية، يقولون أن هؤلاء تستوردهم الحكومة ليجوع الشعب بشكلٍ أقوى من وقتٍ لآخر.

تؤخذ الأجزاء العظمى منهم للقصر أولًا حيث يتم طحنها بالمضخة لتكفي جرعات الاستنشاق اليومية للمواطنين كافة حتى مجيء زائر آخر، قبل أن يُدفَعَ بالباقي للشعب للطعام، الأمر ذاته يُطبَّق مع أوراق الشجر الضخمة التي يجلبها سفراء الحكومة من خارج المدينة حيث يذهب أكثرها للقصر لحرقه بالمداخن ووضعه بالخليط، ثم يُدفَع بالبقية للشعب ليشعر بالبرد بشكلٍ أقوى.. لا أخفي سرًا أننا نعتبر هذا بيننا عيدًا لأننا حين نأكل بقايا الزوار نجوع بشكلٍ مُرضٍ أكثر من الهواء الذي نستنشقه كل صباح من المضخات، الشعور ذاته حين نشعر بالبرد مع الأوراق ومع هواء البوابة.. لا أحد يمكنه أن يجهر بذلك بطبيعة الحال.. لا أحد يستطيع أن يكفر.

مدينة العتمة هي العالم، والمواطن رقم واحد مِلك العالم، والحكومة حكومة العالم، والشعب شعب العالم، لا حياة خارج المدينة، الإله الرحيم يبعث لنا الزوار وأوراق الشجر من برزخٍ مجهول خلقه خصيصًا ليُبقينا أحياء، يحكي القدماء أن العالم كان أوسع من مدينة العتمة قبل آلاف الأزمنة، لكن الذين عاشوا وقتها أفسدوا الكون وأغضبوا الإله الرحيم، كانوا يؤمنون بأشياءٍ تسمى الشبع والدفء والارتواء والشفاء وغيرها من الكلمات الغريبة التي حَرَّمها الإله وأصبحنا نجهل معانيها أو حتى أسماءها بمرور الزمن، شعب مدينة العتمة فقط التزم طاعة المواطن واحد والحكومة والإله حينها، فكافأهم الإله بنزع كل أسباب الحياة من حولهم وجعلها داخل أسوار المدينة فقط.. من يومها أصبح العالم هو مدينة العتمة.

مع كل بداية مائة يومٍ تضيف الحكومة شيئًا جديدًا لخليط الاستنشاق، قالوا أن هذا يساعد على بقاء المدينة وقتًا أطول ويزيد أعمار المواطنين وقوتهم وتحسين النسل القادم. قبل مائتي دقة جرسٍ أضافوا للخليط شيئًا يسمى " الانتظار " .. المواطن ثلاثة المتحدث باسم الحكومة قال إنه يعني عدم الاستعجال، هو شيء يطيل العمر ثلاثة أضعاف، أنت لابد أن تنتظر كل شيء دون سعي إليه، هو قادمٌ قادمٌ لأن الإله رحيمٌ جدًا، انتظر الجوع وانتظر العطش وانتظر البرد وانتظر الألم.. انتظر كل شيء، الانتظار يؤخر قدوم الأشياء التي قسمها الإله الرحيم لنا وأوصى المواطن واحد بتوصيلها، وأنت لن تموت قبل أن تستكملَ ذلك المقسوم، وبناء عليه فإن الانتظار

يؤخر الموت، الإله أوحى للمواطن واحد أنه يريد أن يمنحنا عمرًا أطول فوضعت الحكومة الانتظار بخليط الاستنشاق.. بعد مدة لاحظ الجميع تأخر وصول الزوار وأوراق الشجر.

الخوف.. كان هذا ما استنشقناه قبل مائة دقة جرس، المواطن الثالث قال إن " الخوف " يعني " الحرص " على الحياة والمدينة، أنت لابد أن تخاف من كل شيء حتى تعيش وقتًا أطول وتجعل مدينة العتمة قادرة على الصمود أكثر حتى تصل لعشرة آلاف مواطن ومن ثم للعالم القميء بسلام، سابقًا أضافوا " النفاق " الذي يعني المجاملة ليحلَّ السلام المدينة ويقل التشاحن، القصرُ أحق موضعٍ بهذه الإضافة، ثم الحكومة فالشعب، " الشقاء " يعني الدرجةَ القصوى من الراحة التي سنصلها في حياة العالم القميء وقد وهبتنا الحكومة جزءًا يسيرًا منه لتحفيزنا على إكمال الطريق إلى هناك.

مضى عشرون يومًا على بداية المائة يوم الجديدة، لقد جعلونا نستنشق شيئًا يُسمى " الكُره " هذه المرة، قالوا إن هذا يعني " حبًا أقل " ثم اتفقوا على تسميته " حبًا منظمًا " فيما بعد.. لا تحب أحدًا ولا شيئًا بشكلٍ كبير، نفسك ومدينة العتمة فقط يستحقان حبًا بهذا الشكل، ستعيش وقتًا أطول، وتنجب أبناء أكثر حتى يصل الشعب للرقم عشرة آلاف وينتقل للعيش بالشقاء الأبدي بالعالم القميء حيث رحمة الإله التي لن تنفد.. لا أحد يريد أكثر من ذلك.

نحن نزرع الوهم .. الشجر الوحيد الذي تصلح تربة مدينة العتمة لزراعته، تزرعه الحكومة والناس بشكل مكثف ملء شوارع المدينة والساحات، هكذا حدثني أبي، المدينة بها شوارعٌ وساحات في مكانٍ ما وكانوا يرونها قديمًا بطريقةٍ ما، على كل حالٍ تتركز أشجار الوهم أكثر بأرضٍ أسموها أرض الوهم نتعبَّدُ فيها عبادةً استثنائيةً كل عشرين دقة جرس بالبقاء سُجَّدًا طوال اليوم، أوراق شجر الوهم الدقيقة وقِصَرها الملحوظ لا يجعلانها كافية بشكلٍ قوي لتكون مصدر غذاء أو وقايةً من شتاء، لكنه النبات الذي يحبه الإله وأمر الحكومة بزراعته لأنه نبات العالم القميء الوحيد، حين يأتي موسم الطرح تأخذ الحكومة أوراقه لقصر الحاكم لوضعها بالمداخن مع الأوراق التي يجلبها السفراء ولحوم الزوار لتحويلها جميعًا لاستنشاق البرد والجوع، وحين تكتفي المداخن تُوزَّع باقي الأوراق على الشعب. الوهم هو الحقيقة الوحيدة التي لا تموت هنا..

هو الحصاد الذي لم يتأخر يومًا عن طرح، ونحن مدينون له بالكثير جدًا لأنه يبقينا جوعى وشاعرين بالبرد على الدوام، ومن ثَم يقربنا خطواتٍ من العالم القميء.

بعد أن مات المواطن ألف وستة بجرعة جوع زائدة، والمواطنة ثمانمائة وأربعون بجرعة استنشاقٍ زائدة من البرد أوصت الحكومة بترشيد استنشاقنا اليومي كي نصل لتعداد العشرة آلاف بسلام، حين يُتم شعبنا عشرة آلاف مواطن صالح سينقلنا الإله للعالم القميء حيث حياة الشقاء الأبدي، سنجوع جدًا ونعطش جدًا ونشعر بالبرد جدًا ونتألم جدًا ونخاف جدًا وننتظر جدًا ونكره جدًا.. نحن نشقى بعض الشيء هنا كي نشقى جدًا هناك.. هذا وعد الإله الرحيم للحكومة وقد أبلغته لنا جيلًا بعد جيل، الشروط الخمسة للمواطن الصالح لم تجتمع في عشرة آلاف فردٍ دفعةً واحدةً بعد طوال تاريخ مدينة العتمة الطويل، مادمتَ حيًا فأنت صالح، الصالحون لا يموتون بهذه المدينة، أنت حين تفسد تموت فورًا، هذا من رحمة الإله، الفاسدون يقبضهم الإله الرحيم رأفةً بنا كي لا يفسدوا البقية.. ومازلنا ننتظر.

يحكي الأجداد أن المدينة قد وصلت في زمنٍ ما لتسعةِ آلاف مواطنٍ وبدأ الجميع يستعدُ للانتقال للعالم القميء، لم يبقَ إلا ألفٌ وهذا يسيرٌ إنجابه في وقتٍ قليل، قبل أن يُصدمَ الجميعُ بموتِ ستةِ آلافٍ دفعةً واحدةً في صباحٍ ما بعد جرعة الاستنشاق، أجدادنا كانوا فسدةً جدًا ولم يستحقوا العيش هناك.

نسجدُ للمواطن واحد وللإله الرحيم سبع مرات باليوم.. هذه عبادتنا الوحيدة لشكرهما على المنَّة ونحن شعبٌ متدين جدًا، جدًا.. غايةَ الـ "جدًا" في حقيقة الأمر، الإله الرحيم يرزقنا السنواتِ الطويلة لنعيش أكثر وننجب أكثر ونصل للرقم عشرة آلاف، المواطن واحد يساعده في ذلك، الإله الرحيم يرزقنا الجوع والعطش والبرد والألم والانتظار والخوف والكُره وكل ما يدفعنا للشقاء، المواطن واحد يساعده في ذلك. الإله الرحيم يأتي بالزوَّار وأوراق الشجر من البرزخ، المواطن واحد يساعده في ذلك، الإله الرحيم يُنبت لنا الوهمَ والمواطن واحد على الدوام يساعده في ذلك.. إنهما يفعلان كل شيء لنصل إلى عشرة آلاف مواطن صالح بسلام ونحن

نخذلهما دومًا بشكلٍ مُخجل طوال أجيال سحيقة، قبل خمسمائة دقة جرس أعلنت الحكومة تعيين المواطن أربعة قائمًا بشؤون التوعية الدينية ليساعد الشعب على أن يعيش أطول بتجنب غضب الإله الرحيم والمواطن واحد واستحقاق الموت.. هذا سيُعجِّل بوصولنا للرقم عشرة آلاف بكل تأكيد.

نحن لم نرَ الحكومةَ أبدًا، إنهم أفراد "القدسية" الذين خلقهم الإله الرحيم وجعلهم تحت إمرة المواطن واحد لتسيير أمور المدينة كما يحب، المواطن ثلاثة هو رسول الإله والمواطن واحد والحكومة لإخبارنا بكل شيء، هو صوت الحكم ولسانه، وحين انضم له المواطن أربعة أصبحت الوصايا الحكومية لها شكلٌ أكثرَ جلالًا، من الجيد أن يتكلم أحدٌ باسم الإله على كل حال، هذا يعطي للأمر دافعًا للاستمرار أكثر، ودافعًا للصبر أكثر، ودافعًا للطاعة أكثر، وعمرًا أكثر وانتظارًا أكثر ويجعلنا بخير.. أكثر.

نحن هنا لنعيش حياة أطول.. نزرع الوهم لنحرق وَرَقَه بالمداخن ونستنشقه من المضخات فنعيش وقتًا أطول، نسجد للمواطن واحد وللإله الرحيم ليمنعانا الفساد فنعيش وقتًا أطول، نقف بطوابير الاستنشاق يوميًا بشكلٍ منتظم طوال حياتنا لنعيش وقتًا أطول، نشعر بالجوع والبرد والعطش والخوف والانتظار والكُره لنعيش وقتًا أطول، نستمع لنصائح المواطن أربعة وإرشادات المواطن ثلاثة لنعيش وقتًا أطول، نحب العتمة وندعو الإله الرحيم أن يُجنبنا ذلك الشيء البغيض الذي يسمونه النور فلا يهلكنا فنعيش وقتًا أطول..

ما دمنا أحياء فنحن بخير، نحن مواطنون صالحون يستحقون أن ينتظرهم العالم القميء، نحن شعبٌ يُحب السكون كثيرًا لأن في السكون جانبٌ من الطاعة كما أخبرنا المواطن أربعة، السكون يعني اجتهادًا أكثر لنيل رضا الإله والمواطن واحد، سكونٌ بتقليل الحركة، سكون بتقليل الكلام، سكون بتقليل التفكير، سكون بتقليل جرعاتِ الاستنشاق، من يسكن أكثر يكون عبَّادًا أكثر.. كلنا بحاجة ليكون ساكنًا بقدر ما يستطيع حتى يشقى بالعيش في العالم القميء لاحقًا وهو أقصى ما يتمناه الجميع.

لقد ترَكنا أخي.. أنا لم أرّه قط، أبي وأمي قالا إنه كان عطوفًا جدًا وساكنًا جدًا ولا يملُّ طوابير الاستنشاق أو الحصاد مهما طالت، لقد كان مواطنًا نموذجيًا يستحق العالم القمئ عن جدارة، أنا من تسبَّب برحيله.. قانون مدينة العتمة ينص على ألا يزيد تعداد أي عائلةٍ عن ثلاثة، حين يولدُ رابعٌ ينفصل أصغر الثلاثة القدماء عنهم ليفسح مجالًا للقادم الجديد، يذوب بعدها في الشعب الذي لا يرى بعضَه إلا في طوابير الاستنشاق يوميًا وطوابير حصاد الوهم سنويًا، وفي كليهما ممنوعٌ على الجميع المخاطبة إلا بالمنازل تفعيلًا لمبدأ السكون الذي نحتاجه جميعًا بشدة. أمي تخبرني دائمًا أنها تشم رائحته بالطوابير وهذا يعني أنه ما زال هنا، حين أخبرتها أنني لا أشم شيئًا مميزًا قالت هذه حاسة خاصة بالأمهات فقط، لم أفهم كيف أكون أمًا لأشم رائحة أخي، لكنني نسيت الأمر.

كل مواطنٌ مسموحٌ له بعشرين كلمةٍ يوميًا يموت إن تعدَّاها فورًا لأن الإله الرحيم والمواطن واحد يريان كل شيء، الكلمات الستة الأخيرة لابد أن تكون "الإله الرحيم.. المواطن واحد.. مدينة العتمة" هذا قانون.. نحن لم نجرؤ يومًا على قول الكلمة الواحدة والعشرين، بيوت مدينة العتمة تقع على مسافاتٍ شاسعةٍ من بعضها كي لا يضعف مواطنٌ ويخاطب مواطنًا آخر فيخرق مبدأ السكون ومن ثم يغضب الإله الرحيم ويقبضه إليه ويحرم الجميع من إكمال العشرة آلاف صالح، لقد تمَّ إبعادُ أخي الذي لم أره ولم أخاطبه يومًا للصالح العام، كثيرًا ما تمنيت ألا تكون الوحدة قد غيَّرته وأفسدته وأدَّت به للموت قبل أن يبلغ العالم القميء، هو يستحق أن يكون حيًا الآن بمكانٍ ما في أنحاء المدينة، ربما وقف أمامي يومًا بطابور استنشاقٍ أو حصاد، ربما نكزني بكتفي مرةً برفقٍ لأسمح له بالمرور.. هذا محزن حقًا.

هذه الشمس التي يحملها قصر المواطن الأول جليلةٌ ومكافحةٌ جدًا.. هذا القرص الضخم مصدر العتمة بالمدينة ومن ثَم العالم، نحن لم نرّه لكننا نسمع جلال وصفه من المواطن ثلاثة والمواطن أربعة على الدوام، بناها أجدادنا بوصايا إلهية بعدما اقتصر العالمُ عليهم وعصى الآخرون، لولا شمس القصر لاحتلَّنا النور بالخارج وهلكنا جميعًا وتم محو مدينة العتمة للأبد، هذا القرص المعتم يحمينا منذ قرونٍ بعيدةٍ من الغزو الذي لن نقوى عليه، نحن مدينون للإله

الرحيم والمواطن واحد بالكثير جدًا، لقد سامحتُ القانون على إبعادِ أخي لنعيشَ جميعًا، هذه الشمسُ المعتمة واقفةٌ فوق القصر منذ مئاتِ الأعوامِ لتؤدي دورًا ما وتستحقُ أن نضحي من أجلها ونكون صالحين ساكنين لتصحبنا للعالم القميء سريعًا، النور أعتى عدو لنا ولن نسمح له بالمرور إلى هنا.. سأعمل على ذلك.

القُوَّات.. يد الإله الرحيم وعين المواطن واحد، الفئة الأكثر صلاحًا في مدينة العتمة ومن ثَمَ العالم، ثلاثمائة مواطن اختارهم الإله الرحيم باستشارة المواطن واحد للقضاء على الفساد أولًا بأول، القُوَّات هم الفئة الوحيدة التي يُسمَحُ لها بالحديث خمسين كلمة باليوم، يجولون بشوارع المدينة والساحات للكشف عن كل من قلَّ صلاحه، ينصحون الناس بالانتظار والخوف والكره والنسيان على الدوام، يبلغون عن الفاسد فتقتله الحكومة، ولهم حق قتل من يزيد فساده عن الحد الذي قد يؤذي الآخرين بشكل سريع، هذا مفيد لمدينة العتمة كي لا ينتشر الفساد وتكون الخسارة أكثر فداحةً بخسارة عددٍ أكبر يحرمنا من الوصول للمواطن عشرة آلاف، القوات هم أكثرنا صلاحًا وإخلاصًا لمدينة العتمة كي تتم مهمتها الأزلية بالانتقال للعالم القميء. حين أعلن المواطن ثلاثة أن الإله والمواطن واحد سيختاران القوَّات من الشعب تطلَّع الجميع ليكون بين الفئة التي لن تموت، هؤلاء أول من يصل للعالم القميء وكل ما هناك أنهم فقط ينتظرون استكمال العدد والعمل على تنقية المدينة أولًا بأول من الفَسَدَة، أخي لابد بينهم، أعلم ذلك مما حكاه أبواي اللذان لم يكملا الحكاية في ليلةٍ واحدةٍ قط؛ بسبب الكلمات العشرين التي كانت في الواقع أربعة عشر، أنا سعيدٌ لأنه أول مَنْ وصل منا إلى هناك.. هو يستحق ذلك لأنه كان أكثر من التزم السكون في مدينة العتمة كما قال أبي مرة.

لم يكن لدينا وقتٌ لنرتكب الأخطاء، إنها ألف يوم فقط نعيشها هنا نموت بعدها ونفقد كل شيء وتفوتنا حياة العالم القميء إن لم نحقق ألف نقطة عتمية كاملة، النقاط العتمية هي جواز مرورنا لهذا العالم، حين نجوع أكثر نحوز نقطة، نعطش أكثر نحوز نقطة، نبرد أكثر نحوز نقطة، نخاف أكثر نحوز نقطتين، ننتظر أكثر نحوز نقطتين، نسكنُ أكثر نحوز خمس نقاط، ننسى أكثر

نحوز خمس نقاط، الكل كان يتسابق للفوز بنقاط السكون والنسيان وإثبات أنه أكثر من ينسى وأكثر من يلتزم السكون.

نحن لا ننال النقاط لأننا نفعل، نحن نحوزها لأننا نفعل أكثر، في اليوم الأول من كل عشرةِ أيام يمر وفدُ الحكومة بالبيوتِ لقياس النقاط العتمية عند كل المواطنين، أشعر كثيرًا بالأسى نحو الذين يبكون بسكونٍ بعد رحيلِ الوفد وهم يقتربون من اليوم الألف ولم يحققوا الكثير من النقاط بعد، إنهم يبكون بسكون لينالوا خمس نقاط ربما تكون مفيدة بعض الشيء ليس أكثر، أما أنا فإني أسيرُ بشكلٍ جيد، أتميز بنقاط الجوع والخوف وأحيانًا النسيان رغم سني الصغيرة وأبواي يشعران بالفخر كثيرًا مع كل مرة يغادرنا فيها وفد الحكومة، أكثر ما كانا يفخران به أنني أنسى كل ما يفعلانه لأجلي، وأنسى معاناتهما لأجل أخي، وأنسى فرحتهما بإطراء الوفد، ربما أنساهما هما بشكلٍ كليٍ ذات يوم، لا أعلم كم سأنال حينها لكنه سيكون عملًا عظيمًا بكل تأكيد، حين يحدث هذا كله نشعر براحة كبيرة وبشرى ربما تقودني إلى حيث الشقاء الأبدي، ثم أرى أمي تبكي بسكون حين تظن أنني نمت.

نحن محروسون بأبراج " العتمة الأقل " .. هذه الأعمدة التي يعلوها قبس من نار يجعلنا نرى بشكلٍ طفيفٍ ويمنع الناس من الاصطدام بالأشياء، النار درجة أقل من العتمة، ليس هناك أضداد في هذا العالم كما قال المواطن ثلاثة ذات مرة، الأضداد أرواح الذين عصوا الإله الرحيم قبل أعوام سحيقة، تحوَّل أحدهم إلى النور عكس العتمة، وآخر إلى ضجيج عكس السكون، وثالث إلى شبع عكس الجوع، لقد قال أسماء كثيرة غريبة لم أحفظ منها الكثير، ثم تفشَّت هذه المعاني بين المخلوقات فعصوا أكثر وحقَّ عليهم العذاب، لكنه نصحنا أن نؤمن أن التضاد شيء بشعٌ يدعو للتنافر والقسوة، والإله الرحيم لا يحب ذلك، وحجب كل ما على شاكلة النور والشبع والضجيج عنا وأودعه العالم الجميل مصير العصاة.

هناك عتمة وعتمة أقل، وجوع وجوع أقل، وكُرهٌ وكرهٌ أقل، كنا نهتدي بأبراج العتمة الأقل حتى وقتٍ قريب، لمَّا زادت ذنوب المواطنين أقرَّ المواطن واحد إلغاء أبراج العتمة الأقل من

المدينة كلها، هذا سيحقق درجةً أقوى من الظلام، السواد الكامل الذي لا رؤى فيه، ومن ثم السكون الكامل.. ومن ثم الطاعة الكاملة.

أنت لابد أن تُتم الألف يومٍ كمواطنٍ صالح، أو على الأقل دون أن تكون فاسدًا تمامًا، الفساد وضبطك به يعني أنك ستُرسَل للعالم الجميل حيث العذاب الأبدي بغياب الجوع والعطش والخوف والانتظار والسكون والنسيان وكل هذه النعم، إن قررت ألا تلحق بركبِ العالم القميء فصِلْ لليومِ الألف دون إكمال النقاط الألف، ستموتُ ويختفي ذكرك من الوجود وتختفي ببرزخٍ بين العالمَين، إذا لم تلحق بالعالم القميء فاجتهد ألا تلحق بالعالم الجميل، الحرمان أخف وطأة من العذاب.. هكذا قالوا لنا.

الشيء الأكثر بؤسًا في الأمر أنني لا أستطيع أن أرى كل هذا "القبح" وكل هذه النعم من حولي، العتمة المحيطة بكل شيءٍ لم تجعلنا نرى المدينة يومًا كسكانٍ لها، كان حزينًا ألا نرى الشوارعَ وواجهاتِ البيوتِ والقصر الذي تُحاك حوله الأساطير، أمي حدثتني قديمًا أن الإناث كُنَّ يضعن شيئًا يسمى "الزينة" خاصة حين يحين موعدُ تزاوجها، ثم لم يعد هناك داعٍ لهذا كله وقد غاب النظر، لا أنكر أنني تمنيتُ كثيرًا لو رأيتُ أبي وأمي، يبدوان من أصواتهما صالحَيْن جدًا، لكن لا بأس، لا أحد يرى شيئًا، يكفينا أننا نحفظ الطريق من بيوتنا للمضخات، هذا كافٍ جدًا لنحيا كما يريد الإله الرحيم والمواطن واحد والحكومة والقوات، هذا كافٍ جدًا.

هذا بعض ما يخص مدينة العتمة، مأوانا وما تبقى من العالم وأفلت من سخط الإله، المكان الذي بدأت فيه القصة وسارت على هذا النحو الغريب وانتهت بوجودي مع الجدد بعد هذا كله.. ونحن أشقياء جدًا أننا نملك مثلها وإلهها الرحيم ومواطنها واحد، هذا أفضل ما كان يمكن أن تقدمه الحياة لنا من نِعَم في وقتٍ ما، ونحن أبدًا لم نغفل عن شكر هذا لحظة في تلك الأيام.

الفصل الثاني

" أنا ابن البيت الأخير.. وإني أراك "

كنت خلفه مباشرة.. في الواقع كنتُ خلف الجميع، أنا المواطن ألفان وواحد آخر المواطنين وآخر من يقف بكل الطوابير، العتمة المحيطة بالجميع والسكون الذي يتسابق الكل في تطبيقه والظفر بنقاطه الخمس جعلا الأمر غريبًا بعض الشيء، انصرف وسمعتُ خطواته أمامي، خطواته فقط كانت ظاهرة بين ألفي مواطن وواحد، خمس خطوات ثم اختفت، لا أعلم إن كان قد وصل لهدفٍ أقعدَه أم أنه اكتفى بإزعاجٍ مؤقت، خمس خطوات من مخرج الساحة لا تكفي للوصول لأي مكان على كل حال.. غريب.

نحن نتحرك زحفًا، الأجساد لا تصنع ضجيجًا عند احتكاكها بالأرض.. الأقدام تفعل، والجميع بحاجة لنقاط السكون بالذات في طريق الألف، وقعُ الخطوات يعني أن أحدهم قرر التضحية، أحدهم لا يبالي بنقاط العتمة وهذا يعني أنه ربما لا يبالي بالعالم القميء، ربما أصابني بعض الإرهاق من وقوفي بالطابور وقتًا طويلًا أو أنني استنشقتُ جرعةً مكثفة من المضخة اليوم وأحتاج التوبة، استكملتُ الزحف..

اجتهدُ بأن أجوع أكثر وأُسكِّن وساوسي أكثر وأنسى كل شيء، المواطن أربعة قال " كُن مولودًا جديدًا في كل لحظة، لا تدع نفسك تذكر شيئًا مضى ولو انتهى للتو، الذاكرةُ الفارغةُ تمنحك عمرًا أطول وقلبًا أخَفّ وتعبدُ الحاكمَ بشكلٍ أكثر وفاء " الكلُ هنا بحاجة للاذاكرة، حين قال المواطن ثلاثة أن الزحف يقربك أكثر من السكون، والسكون يقربك أكثر من نقاط العتمة، ونقاط العتمة تقربك أكثر من العالم القميء، والعالم القميء يمنحك حياةً أبدية تحت رعاية المواطن واحد والإله الرحيم.. جثا الجميع على بطنه فورًا كأننا خُلقنا زواحف ولم تكن لنا أقدامٌ يومًا.

" أنا أقول الكلمة الواحدة والعشرين.. وإني أراك "

سمعتها هذه المرة تأتيني من فوقي لا جواري، هذا يعني أن قائلها ليس زاحفًا، وهذا يعني أنه يراني بوضوحٍ رغم العتمة التي تلف كل شيء منذ إزالة أبراج العتمة الأقل، لقد راق لي ذلك، لا أنكر أنني أفتقدُ سماع الأصوات أو تخيل سماعها حتى، أربعون كلمة أسمعها باليوم من شخصين فقط وعشرون أقولها لم تكن كافيةً أبدًا لأشعر بالحياة بشكلٍ كامل، كان ينقصني أن أسمع صوتًا ثالثًا يشعرني أنني حي بشكلٍ ما، اللعنة..

أنا ارتكبتُ الكثير من الذنوب في هذه اللحظات وربما فقدتُ الكثير من النقاط التي اكتسبتها سابقًا، سيكون قاتلًا ألا تفخر أمي في مرة القياس القادمة مع انصراف الوفد.. لكنني رغم ذلك يعجبني ذلك بشكلٍ ما وأنتظر سماع الثالثة، شعور أن شيئًا ما يُقالُ لأجلك وسط الصمت هو شعورٌ "حياة" ، من الممتعِ أن تجد كلماتٍ تصحبك طريقًا اعتدتَ سيرها وحدك.

قد نسيتُ الأمر .. طابور هذا اليوم كان متعبًا بشكلٍ أظن الجميع عاناه، أنا بحاجة أكثر لزيادة جرعات السكون والنسيان، لابد أن تظل أمي فخورة في كل مرة يغادرنا الوفد فيها، من يدري.. ربما انضممتُ للقوات يومًا ما، في ذلك اليوم حدثت أبي وأمي عن أنني استنشقتُ جوعًا كثيرًا وخوفًا كثيرًا وانتظارًا لا بأس به، حين قررتُ أن أحدثهم عن الصوت الذي لا يزحف وجدتني أصل للكلمةِ الثالثة عشر وتبقت لي كلمة قبل الستة المقدسة.. فقلت "أكرهكما".. واحتضناني يقولان كذلك نحن.

المسافات الشاسعة الفاصلة بين البيوت من فضل الإله الرحيم والمواطن واحد، لقد حدثونا أنهما صمما المدينة على هذا النحو لإعطاء مساحة أكبر للسكون وإجبار كل مواطني بيتٍ على عدم سماعٍ شيء غير حديث شركائهم بنفس البيت، بعض البيوت يسكنها مواطنون فُرادى، هؤلاء محظوظون بشكلٍ كبير، غير مجبرين على قول الكلمات العشرين اليومية، هم أكثر من يحصل على نقاط السكون.. وهم محظوظون جدًا لأن آباءهم لم يكونوا مواطنين صالحين بما يكفي ليمكثوا وقتًا أطول ويبادلونهم حديثًا يقتطع من نقاطهم العتمية.

حين أحسستُ بالخطواتِ مجددًا إلى جانبي توقفتُ عن الزحف، " أنا لم أستنشق منذ مائة دقة جرس.. وإني أراك " .. لم يعد هناك شكٌ في أن شيئًا مريبًا يحدث، ربما كان اختبارًا من القوات لقياس صلاح المواطنين، قررتُ أن أبقى متماسكًا دون أي ردة فعلٍ قد تجعلهم يعتبرونني فاسدًا لا يستحق إكمال طريق الألف يوم، شعرتُ بشيء يمس كتفي، كانت يدًا في الغالب، التلامس ممنوعٌ في مدينة العتمة حتى السلام إلا بين شركاء البيت الواحد، التلامس يُجبرك على الحديث، والحديث يقتطع من السكون، والسكون إن قل نهلك، بعض التلامسات غير المقصودة تحدث أثناء الطوابير ولحظات مغادرة الساحة، الكل يتغاضى عنها كي لا يُضطَّر لمزيد من الفقد.

حين لمسني شعرتُ بموتٍ يسري بي، أنا على وشك الهلاك وهذا المواطن غريب الأطوار مجنونٌ بشكلٍ ما، أسرعتُ الزحف كي أصلَ للبيتِ بشكلٍ أسرع، قد يجعلني هذا أفقدُ وجهةَ البيتِ لأننا أصبحنا نحسب عدد الزحفاتِ حتى نصل وجهاتنا بشكلٍ صحيح منذ إلغاء أبراجِ العتمة الأقل، ليس مهمًا.. أن أُخطئ الوجهةَ خيرٌ من أن تقتلني القوات وأختفي للأبد.

حين دقّ جرس مدينة العتمة للمرةِ الخمسين بعد هذا اليوم كنتُ قد نسيتُ تمامًا ما حدث، حين يدقُّ الجرس نعرف أن يومًا جديدًا بدأ فيسعى الجميع للمضخات، بعد عشرين جرسًا من يوم اللمس أعلنت القواتُ أن مواطنًا ضُبِطَ بفساده وأرسِلَ للعالم الجميل حيث يستكملُ عذابه هناك، في اليوم الخمسين علمتُ أنه لم يكن المضبوط، كنتُ في كل يومٍ سابقٍ أقف وراءه ويسبقنا بالطابور ألف وتسعمائة وثمانية وتسعون مواطن يستنشقون وهبات الإله الرحيم والمواطن واحد، كنت أعلمُ أنه هو من تلك الرائحة المميزة التي تفوح منه واستنشقتها في ذلك اليوم، لما غاب كل هذا الوقتُ تيقنتُ أنه من أرسل إلى هناك، ولما عاد وجدتني أقتربُ من الموتِ رعبًا، كيف يجرؤ مواطنٌ أن يغيب عن طوابير الاستنشاقِ كل هذا الوقت دون أن يموت بغياب الجرعات.. وكيف لم يتم ضبطه؟

" بعد انتهاء الطابور، خمسون زحفةً بعد بيتك شمالًا.. سأكون هناك "

زحفتُ سريعًا جدًا وكثيرًا جدًا هذا اليوم، المرة الأولى في حياتي التي تنازلتُ فيها عن جرعات الاستنشاق وبالتبعية بعض النقاط لأظل حيًا، زحفتُ حتى البيتِ وضحيتُ بالكثير من نقاط الانتظار، المواطن ألفان كان قاسيًا جدًا كما لم أعرفه بعد ذلك يومًا، كان مجنونًا جدًا، ومتهورًا جدًا، وعازمًا جدًا، وغير عابئ جدًا، كان فاقدًا شيئًا ما.. وكان إبراهيم جدًا.

اختفى مجددًا واختفت رائحته من الطابور لستة عشر دقة جرس أو ربما أكثر، توقعتُ أن يكونَ هو ذبيح القوات الذي كثر فساده وكان لزامًا أن يُقتَل، المواطن ثلاثة قال إن مواطنًا ضُبِطَ بانخفاضٍ شديدٍ في رصيد خوفِه ونسيانه أثناء المرور العشوائي لوفد القياس على المواطنين، قد اكتشفوا أنه يذكرُ الخلل المؤقت لمضخة الجوع بالأمس، ولم يرتعد حين ذُكِرَت كلمة " النور " أمامه فجأة، هذا معدل من الفساد لم يسبقه إليه مواطنٌ منذ مئات دقات الأجراس، ولذلك توجَّب ذبحه وتخليص البقية الصالحة منه.

كنتُ أظنه هو، تمنيتُ ذلك وتمنيت عدمه في لحظة واحدة، لمَّا عادت الرائحة للظهور أمامي بالطابور لم أدرِ ما يتوجبُّ عليَّ الشعور به تحديدًا.. فقررتُ السكون وإجبار عقلي على ذلك كي لا أفقد المزيد من النقاط.

لما خلق الإله الرحيم " السلب " سجدنا له وللمواطن واحد سجدة إضافية، المواطن ثلاثة قال إن هذا يعطي فرصة أكبر للبعض للحاق بالعالم القميء، كل من يقترب من يومه الألف ولا يرى في نفسه فرصةً حيازة النقطة المائة يمكنه أن يسمح لآخر أصغر عمرًا أن يسلب نقاطه وفي المقابل تقتله القوات ويُدفَن بالبرزخ الذي يفصل العالمين، بينما تزيد فرص آخرين للحاق بشقاء العالم القميء الأبدي.

في البداية كان الآباء يفعلون ذلك، يسمحون لأبناءهم بالسلب وتقتلهم القوات، نذكر أنه في يومٍ واحد تم قتل ثلاثمائة مواطن، الغريب أن بعض الأبناء قاموا بالعكس، لم يعلم أحدٌ هل

أجبرهم أباؤهم أم أنهم يئسوا مبكرًا، لكن مدينة العتمة في هذه الأيام كانت غريبة الأطوار بشكلٍ كبير.

كنت أشعرُ أن هناك خطأ ما في شيء ما لا أعلمه، قل عدد المواطنين بشكلٍ ملحوظ، صحيحٌ أن البعض زادت فرصته للحاق بالعالم القميء، لكن البعض الآخر قلّت فُرصه جدًا بقلة المواطنين وعدم زيادة نقاطه، لقد أوصت الحكومة بضخ كميات إضافية من الخوف والانتظار في هذه الأيام وأوصت المواطنين باستنشاقها بكمياتٍ مضاعفة، ثم اطمأن الشعب بصورةٍ ما بعد أول زيارةٍ لوفد الحكومة بعد خلق السلب واستنشاقه.. ثمة ارتفاع ملحوظ في نقاط الجميع حتى من لم يسلب شيئًا.. شعب مدينة العتمة أثبت في هذه الأيام أنه قادرٌ على السير بثباتٍ نحو شقاء العالم القميء أكثر من أي وقتٍ مضى.

فقدتُ الكثير .. أصبحتُ أشعر بالموت كلما استنشقتُ رائحته أمامي بالطوابير، صحيحٌ أن هذا لا يتكرر كثيرًا، لكن هذا يجعلني أشعر بالموتِ أكثر، قررتُ أن ألبي دعوة القول الرابع، ليس هناك ما أخسره أكثر من النقاط وقد خسرتها بالفعل، لو استمر الوضع كذلك سأهلك بفقدي .. " المنزل الأخير، بعد الطابور .. هذا ملائم للبدء " كانت هذه هي المرة الأولى التي أزحف فيها بعد البيت قبل الأخير .. بيتنا.

****

- لأنك الوحيد الأحدث مني هنا، ولأنني أحب تكسير الأوامر، ولأنك لا تفشي بأسرارك، اخترتك لتكون صديقي ريثما أرحل .. هذا كل شيء.

لم أُجب ساعتها بشيء، كنتُ أنصتُ فقط وكان غامضًا بشكلٍ مرعب وبغيضًا كرائحة منزله.

- أوه نسيت أنني نطقتُ الكلمة الواحدة والعشرين ولم تحل بي لعنة الإله الرحيم والمواطن واحد.. قد يصدم هذا ثوابتك بشكلٍ ما.

لم أنطق، في الواقع كنتُ أريد أن أحتفظ برصيد كلماتي العشرين في حديثٍ مع أبي وأمي عن أخي أو الوفد أو أن مضخة الجوع اليوم لم تكن على ما يرام ولم نجُع بما يكفي، أو عما تذكره

أمي عن "الزينة" ويذكره أبي عن واجهات البيوت، كان يمضغُ شيئًا ما، استطعتُ استكشاف ذلك من صوتٍ كان يكسر الصمت بعد حديثه.

- بإمكانك الإنصراف الآن.

ثم سمعتُ خطواتٍ إلى الباب وفتحه.. زحفت.

- لا أحد يزحف عند إبراهيم.. سِر أو مُت.

سمعتُ كلماتِه التي لم أستطع لها تفسيرًا ولا تكسيرًا، حاولتُ النهوض فتعثرتُ ثم سقطتُ كأن أقدامي مخلوقة من فراغ أو أنني نسيت أنني أملكها، سمعتُ صوتًا غريبًا صدر عنه ساعتها وأظنه كان يعنيني به فشعرتُ برغبةٍ قويةٍ في قتله، وحين وصلتُ للباب وخطوت بالخارجِ خطوةً سقطتُ للزحف كأن القوة على السير مقرونة بالتواجد داخل هذا البيت الغريب فقط.

- لا أشعر برغبة في حضور طوابيرهم لثلاث دقاتٍ قادمة، ألقاك هنا بعد الثالثة.

قالها وأغلق الباب.. وزحفْتْ.

لوهلةٍ أحسست أنني راغبٌ في الرؤية، رؤيته ورؤية ما يمضغ وما يملكه من قوة تجبرك على السير ثم السقوط بالخارج، الطريق لبيتنا والبيوت وتشابهها والمسافات بينها والصمت وكل ما حكاه أبي قديمًا وهل مازال هنا أم رحل كأخي بطريقةٍ ما، رغبتُ برؤية كل هذا ثم ندمت أنني عصيت بالتمني، هذا أسوأ ما وصلنا إليه، لا لا.. ليس أننا ندمنا على العصيان وأننا لم نعد نرَ ما نعيش به ونُقدِّسُ السمع أكثر، بل لأننا تمنينا وفي ذلك عصيان، التمني كفرٌ بيِّن.. سجدتُ على باب منزلنا ثم دلفت إليه.

****

سيراقبون النسل.. لا خير في المدينة وكل بيت فيها له ابن غادره لأن أخًا له جاء، شعورٌ قاتل أن تمتلئ شوارع وبيوت وطوابير مدينة العتمة بالأبناء المغادرين والبيوت التي تكره أبناءها –أو تحبهم حبًا منظمًا- دون أن تلقاهم.

لما أعلنوا أن فردًا من القوات سيقيم بكل بيت به زوجان لمراقبة إنتاج النسل الجديد عن قرب وضمان ألا يتخطى الإنجاب ابنًا واحدًا حتى لا يُفسد المواطنون الأقل صلاحًا ما تريده الحكومة من صلاحٍ للمدينة، حينها جعلونا نستنشق شيئًا يسمى " الشهوة " قالوا أنها تعني تسخير رغباتنا لرغبات الإله الرحيم والمواطن واحد، وحين استشعر بعض الأزواج الحرج في بداية الأمر أضافوا للمضخات شيئًا أسموه " الحياء " وقالوا أن هذا يعني الخجل من أن نخفي شيئًا عن الحكومة التي تريد الصالح للمدينة وتبذل جهدًا خرافيًا لتصل بنا للعالم القميء بسلام، لم يعد زوجان يجتمعان لإنجابٍ في مدينة العتمة إلا من لا نسل له.. وبحضور فرد القوات الذي يشرف على كل شيء ويباركه ببركة الإله الرحيم والمواطن واحد لضمان نقاء انسل الجديد من أي آثام من شأنها أن تعطل المسير للعالم القميء.

أصبح لدينا مقيمٌ رابعٌ بالبيت، بدا الأمر غريبًا بعض الشيء في بدايته، ثم اعتدنا هذا وألفناه لا يغادر البيت حتى للطابور، إنه مُكلفٌ من الإله والمواطن بمراقبة أبي وأمي وضمان عدم إنتاجهما لنسلٍ جديد، لقد حمدنا له ذلك والتزم أبواي الأمر كي يكملا طريقهما للشقاء الأبدي.

لم تعد كلماتنا الستون في نهاية كل يومٍ تشملُ حديثًا عن أدوات الزينة القديمة، أو شكل البيوت والشوارع، أو أخي الذي غادر، أو إرهاق طابور اليوم، أو خوف أمي من عدم الاستمرار طويلًا، حديثنا أصبح شكرًا للإله الرحيم والمواطن واحد والقوات، أو وعدًا لأنفسنا أننا سنبذل مجهودًا إضافيًا لاكتساب نقاط السكون، وحين مرَّت سبع دقّات للجرس أصبحنا لا نتحدث إلا بالكلمات الست الأخيرة من العشرين.. في هذا اليوم قال مندوب الحكومة لدينا أننا عائلة صالحة تستحق أن تبقى وقتًا إضافيًا بمدينة العتمة ثم العالم القميء.

****

-أنا النحيف الذي أسمتني جدتي "هناك" وقالت لن يصل أبدًا، جدي رأى "بعد" مناسبًا أكثر وقال سيصل متأخرًا، أبي لم يعبأ كثيرًا بالأمر.. قال "خارطة" وفسَّر أنني سأتوه، أمي قالت نسميه "هنا" ويبقى بالجوار، وكانوا يكرهونها فلم يسمعوا، والخالة "ربما" وقالت يبدو متخلفًا

ولن يتخذ قرارًا واضحًا، عمي كان متأكدًا أن "وصلنا" اسم يلائم ملامحي الصغيرة الكاذبة.. حين مرَّ على ذلك عشرون سنة قضيتُها دون اسم قالت محبوبتي إن "معًا" قد يبدو مناسبًا بعض الشيء لنخوض كلَ تلكَ الحماقات.. أنا الآن "معًا" وأنا المولود الوحيد الذي أسمته حبيبةٌ تصغرُه.

قال كل ذلك تباعًا ولم يتوقف ولم أفهم منه أي شيء، كان غريبًا ويتحدثُ بلغةٍ غريبةٍ وكلماتٍ لم أفهم معناها.

- زيارة هذا النحيف الذي أخاف منه ستقتلني ذات يوم.

قال وهو يشربُ شيئًا.. وأنا استمر سكوني..

- أوه أنت هنا.. عذرًا.. أعجبني أنك لم تخلف الموعد، أعلم أن وجود هذا الأحمق في بيتكم ساهم بهذا بعض الشيء، بك بعض رغبة في التحرر.. وهذا يروق لي جدًا.

قالها وسمعت صوت مضغه يُضافُ لصوتِ شُربِه مجددًا، لم أنطق.. قال:

- ليس صحيحًا أنني أختلف عنك أو عنهم في شيء، خلقتنا واحدة ومنشأنا واحد، كل ما هنالك فقط أنني ذهبتُ للبوابة ورأيتُ كل شيء.

أفزعتني الكلمات ولم أنطق كالعادة.. قال:

- انصرف الآن، غدًا بعد الطابور الذي تقدسه سأكون هنا أستنشق جرعاتي الخاصة.. إلى لقاء.

قالها وسمعت صوتًا غريبًا كالذي أصدره في المرة السابقة حين خروجي، لم يكن حديثًا وإنما شيئًا يتتابع بعشوائية أعجبتني وأخفيتُ إعجابي بها فقال:

- هذا شيء لن يعرفه أحدٌ منكم، يسمونه في مكان ما من العالم الضحك، وأنا أحبه كثيرًا، لا أكرهه، فهمت؟.. أحبه.

إن كان يحبه فلماذا يكرره؟ لم أتحمل كل هذا الكم من غرابة الأطوار فهممتُ بالزحف بعدما سمعتُ صوت الباب يُفتح.

- سبق وأخبرتك أنه لا زحف هنا، سِر أو مُتْ.

سِرت.. لم أكن مستعدًا للموتِ بعد، ولا أدري إن كان هذا اختيارًا موفقًا.

****

ثم خلق الإله الرحيم القوة ومزجها بالسلب في جرعة استنشاق واحدة، ثمة تغيير طرأ على قانون السلب بعدها، من استطاع أن يسلب الآخر حياته تنتقل نقاطه العتمية إليه بصورة تلقائية، قالوا إن هذا قانون مؤقت لتصفية المدينة من المواطنين الأقل صلاحًا، الصلاح في هذه الأيام كان يعني القدرة على السلب فقط، أكثرنا صلاحًا هو أكثرنًا سلبًا، وفي هذه الأيام كانت رائحة الدماء أقوى من رائحة المضخات، أصبحتُ المواطن ألف وواحد وأصبح غريبُ الأطوار المواطن ألف.

كان مفزعًا أن مدينة العتمة قد قلَّ تعدادها للنصف، وحينها قال المواطن ثلاثة أن الإله والمواطن واحد فخوران بتخلص المدينة من كل الفاسدين فيها وأنها أصبحت مكانًا يصلح للسير نحو النهاية البداية بشكلٍ مُبشِّر. لا أعلم إن كان أبي فاسدًا فعلًا أم لا، قتله أحدهم لا نعرفه واقتنص نقاطه، هل كان حديثه السري لي عن المدينة القديمة وواجهات البيوت سببًا في ذلك؟ هذا يعني أنني من قتله، وهذا يعني أنني لابد أن أكون حريصًا في حديثي مع أمي حتى لا تحدثني عن الزينة، هذا مرعب.

في هذا اليوم وجدنا شيئًا ينزل من عيني أمي ولم نفهم ما يكون وخشينا أن تكون نقاطًا تفقدها، وفي هذا اليومِ لم أسأل إن كان سيُدفن بالبرزخ أم سيذهب للعالم الجميل وكنت أريدُ أن أفعل، وفي هذا اليوم شعرتُ أنني أريد أبي أكثر من أمي، وفي هذا اليوم شعرت أنني راغبٌ جدًا في سماع كل الأحاديث التي أحفظها عن شكل المدينة قديمًا رغم توقفها من مدةٍ وظني أنني نسيتها، وفي هذا اليوم اشتقتُ جدًا لرؤية وجه أبي الذي لم أره أبدًا وكنت أجتهد بتخيله من صوته واكتملت الصورة فقط يوم هلاكه، وفي هذا اليوم انتظرتُ أن يغادرنا المواطن من القوات لأن وجوده لم يعد ذا معنى.. ولم يفعل.

حين مرَّ على هذا عشرون دقة جرس صدر أمرٌ من المواطن واحد بتجريم الحديث بين مواطنَيْن من جيلين مئويين مختلفين، المواطنون حتى الرقم مائة بإمكانهم الحوار، ومن المائة وواحد حتى المائتين بإمكانهم الحوار، وهكذا حتى آخر مواطن. أنا قد جعلوني مع الفئة الأخيرة من المواطن ألف وتسعمائة حتى ألفين وواحد، هذا يعطي فرصةً أكبر للفوز بنقاط السكون، كل بيتٍ به أبٌ وأم وابن لن يشمل الحديث ثلاثتهم بعد الآن، الابن بالتأكيد من جيل مئوي مختلف.. هذا القرار أسكتَ الأبناء للأبد وأصمَّ الآباء للأبد، ولا شيءَ يُفعلُ بوطنٍ أكثر سفالةً من أن يُمنَع إنصات الآباء للأبناء، سارعتُ بالتوبة حين مرَّ هذا بخاطري، سكت حديثي مع أمي للأبد.. لكننا أحببنا ذلك لأنه سيحميها من الحديث معي حول الزينةِ وأخي، سجدنا للمواطن واحد شاكرين لأنه قرر منحنا المزيد من النقاط.

****

- نحن نشبه ما ضاع منا، نشبه ما نريده ولم ننله وما نلناه ولم نُرده، نشبه كل شيء اشتقنا له وكل شيء حذرونا منه، نحن نشبه النور الذي يدخل من البوابة مع كل زائر جديد ويختبئ الجميع منه، ونشبه شمس العتمة فوق القصر، نحن في المنتصف تمامًا بين الـ" وداعًا " والـ" إلى لقاء " .. وفي المنتصف تمامًا بين الـ" مرحبًا " والـ" سأنصرف " .. أحيانًا نميلُ قليلًا للـ" نعم " حين نريد " لا " ، ونُفضِّل الـ" ربما " حين نريد " لا " إضافية. لقد زَرَعَنا أحدهم في هذه الأرض ظانًا أنه قام بخيرٍ سيُجزى به، عاد لأهله وترك أمر رَيِّنا للتراب، أتعلم؟ ليس المحزن أنه تركنا ورحل، المحزن حقًا أن التراب اهتم بالأمر، وجدنا أنفسنا فجأة وسط كل هذه الفوضى، بل ومطالبين بالاستمرار، عابرُ السبيلِ السافل هذا كان مجرمًا جدًا ليُخلِّف وراءه كل هذا العبث ويرحل لمجرد أنه اشتاق لذويه، لقد كان قاسيًا جدًا مثل الـ" لا " .. لقد كان يشبه تمامًا انحيازنا للـ" نعم " والـ" ربما " يا حسن.

قال كل هذا دفعةً واحدة ولم أسأل عن ال "كل هذا" الذي لم أفهمه، أخبرني أنه قد زار إبراهيم واللوحة، لم أسأل عن مزيدٍ ورغبتُ في الانصراف.. لكنني علمتُ أن نفس الشيء الذي فقدته أمي قد فقده هو من عينيه بالطريقة ذاتها.

****

الفصل الثالث

لم تُقَم الطوابير بعد دقة الجرس لهذا اليوم، حين زحفنا جميعًا صوبَ البوابة لم نسمع الصوتَ المعتاد المميز للمضخات، جاء صوت المواطن ثلاثة قاطعًا انتظارنا قائلًا أن مهمة أكثر قدسية من جرعات الاستنشاق بانتظار أبناء مدينة العتمة.. سنقيم صنمَ الطاعة.

صنم الطاعة سيكون صاحب الوساطة بيننا وبين الإله الرحيم والمواطن واحد، لقد شغلتهما مهمة إعادة تجهيز العالم القميء عن يمين البرزخ ليكون أكثر شقاء ويصبح لائقًا أكثر بالصالحين من مواطني المدينة، توفير قدرٍ كافٍ من الجوع والخوف والبرد والعطش والسكون والانتظار والسلب ليسع عشرة آلاف مواطن سيسكنون هناك يومًا ليس شيئًا يسيرًا، وتجهيز العالم الجميل بالتوازي على يسار البرزخ ليحوي قدرًا كافيًا من الجوع الأقل والعطش الأقل والبرد الأقل والخوف الأقل والسكون الأقل والانتظار الأقل للمواطنين الفاسدين لا يقل قدسيةً ولا صعوبةً عن المهمة الأولى، العقاب أهم من الثواب وأحفظُ للمُلكِ وأدعى للاستمرار بخير، هذا قاله المواطن أربعةُ يومًا ما ومازلتُ أحفظه.

الإله الرحيم والمواطن واحد يبذلان جهدًا خرافيًا لتجهيز كل شيءٍ بشكلٍ مناسب، هذا يعني أن موعد الرحيل للعالمَيْن قد اقترب، وأن على الجميع مضاعفة الجهود لبناء صنم الطاعة الذي سيتولى قيادتنا إلى هناك مؤقتًا ريثما ينتهيان مما سارا إليه.. بناء صنم الطاعة هو أول الاختبارات للجميع لتحديد اللحاق بأي من العالمين.. والجميع يجتهد.

أقل مائة مواطن مشاركة في البناء سيُعدَمون ويكونون أول من يُرسَل للعالم الجميل الذي ينشغل الإله والمواطن واحد الآن بتجهيزه لهم في سفرٍ لمدةِ مائة يوم ليخلدوا به.. أكثر مائة مواطن مشاركة بالبناء؟ لم يذكروا شيئًا عن ذلك، إنهم أول مائة مواطن، هم أحق بالتأكيد بشيء ما، لكننا فضلنا نقاط السكون والانتظار على أن نعرف.

حين انتهينا ضحى المواطن رقم ثلاثين في قائمة الأكثر مساهمة في البناء بكلمتين من عشرينِه اليومية سائلًا " ما ثوابنا؟ " .. قتلته القوات وقال المواطن أربعة أن المطالبة بمقابلٍ لقاء خدمة مدينة العتمة وصنع الشريك الثالث للإله الرحيم والمواطن واحد اللذين سافرا خارج المدينة لإعداد ما يلزم للحياة الأخرى التي تقترب.. شيء فاسد، بل إنه أكثر الأشياء الفاسدة التي تدفع بصاحبها للعالم الجميل.

في اللحظة التي قتلوه فيها وأعلن المواطن ثلاثة أننا قد انتهينا من صنع إلهنا الجديد سجدنا له، ثم سمعنا قول المواطن أربعة في سجودنا يأتي من أعلى أن السجود لابد أن يستمر ثلاث دقاتٍ للجرس.. فظللنا ساجدين ثلاثة أيامٍ كاملة.

أنا الآن المواطن تسعمائة وواحد، لم أعد أفهم لماذا فردُ القوات مازال مقيمًا لدينا بعد وفاة أبي، ولم يعد هناك من يخشون تناسله، طاف بفكري أن أسأله لماذا لا يعوضوننا بأخي الذي لا أعرفه بدلًا عنه، سنصبح ثلاثة مجددًا ولن نتخطى العدد المفروض وجوده بكل بيت، لم أفعل .. ولم يغادر هو، قال لي غريب الأطوار في زيارة الأمس أنه لن يغادر أبدًا، لقد دخلت الحكومة البيوت ولن تغادر للأبد، سيراقب كل شيء، انتظامنا بالطوابير، استنشاقنا الكامل للجرعات، كلماتنا العشرين، الأشياء التي تنزل من العينين حينما نفتقد، لقد قال لي فرد القوات أن هذا من غضب الإله عقابًا على التفريط في النسيان ولابد أن نكون أكثر صلاحًا بدلًا من أن نُقتَل، أمي كانت فاسدةً جدًا لتعجز عن ذلك..

أمي قتلها فرد القوات وسمعتها تقول "آه" ضعيفة بينما أنا مستلقٍ على بطني كما العادة ريثما ينهي مهمته، قال أنه سيطأها ليستولدها بنسلٍ جديدٍ أكثر نقاءً مني، حين أنهى مَهمته قتلها وقال أنها موضعٌ خَرِب لا يصلحُ لحملِ نسلٍ يستحق العتمة والقماءة، تؤذيني ذكرى ذلك اليوم بشكلٍ بشع، قال يومها إن عليَّ الذهاب لسجدةٍ إضافية لتمثال الطاعة حتى لا يلحقني فسادها، في سجودنا هناك نتخلص من كل بادرة فساد من شأنها أن تمنعنا الشقاء الأبدي، ومدينة العتمة ومستقبلي هناك عن يمين البرزخ أهمُّ من أمي بكثير.. لقد قال ذلك.

النسيان بات بسبع نقاط عتمية، والانتظار بمثلها.. كنا بحاجة لهذا للتخلص من ذكريات كل ما حدث، كان علينا أن نبذل مجهودًا أكبر لنلحق بالعالم القميء وقد ساعدتنا الحكومة بذلك بشكلٍ سريع جعلنا نزيد سجداتنا للإله الرحيم والمواطن واحد لعشر سجداتٍ وزدناها بسبعٍ لصنم الطاعة، زيادة نقاط النسيان والانتظار وتذكير المواطن ثلاثة لنا أنه فات على سفر الإله الرحيم والمواطن واحد ثلاثون دقة جرس جعل الجميع راغبًا في الهدف المقدس لمدينة العتمة من سحيق الأزمنة.. الشقاء الخالد.

طوابير الاستنشاق باتت تستغرق وقتًا أقل بعدما قلَّ عدد المواطنين للرقم تسعمائة وواحد، حين لاحظ صنم العتمة هذا قرر مكافأة الجميع بزيادة جرعات الجوع والعطش والخوف والسلب تحديدًا، جعلنا هذا نقضي وقتًا اطول هناك عند المضخات وسجدنا له في هذا اليوم سجدتين إضافيتين.

****

- كُلْ.

قالها لي في زيارتي الخامسة ومازلت مكتفيًا بالاستماع، الرائحة الغريبة كانت قريبة جدًا في هذا اليوم، تراجعتُ قليلًا فقال:

- هذا من طعامهم، الرائحة رائحة التخزين فقط.

- من.. من أين لك هذا؟

سمعتُ ذلك الصوت الذي قال لي يومًا أنه شيء يسمى الضحك وأنه أبدًا لن يوضع بالمضخات ثم قال:

- من.. من.. أين.. لك.. هذا.. ممم.. من الجيد أنك قررتَ التضحية أخيرًا، بل وبربع رصيد كلماتك اليومية، نتيجة لا بأس بها بعد خمس زيارات.

ساد الصمتُ مجددًا استمعُ صوتَ مضغه فقط قبل أن يعود للحديث قائلًا:

- تناول.

ثم وضع شيئًا ما بيدي يبدو لحمًا.

تحسستها ثم تناولتها، كنتُ بحاجة ماسة لإحساس الجوع الأقل بعد تأخير وصول الزوار منذ فترة واعتمادنا فقط على الاستنشاقات، تناولتُ فأكلتُ فأحسستُ أن الأمور باتت أفضل، كنتُ بحاجة لهذا في حقيقة الأمر.

- أتعلم لماذا لم أُطعِمك منذ المرة الأولى؟

- لـ.. لماذا؟

- لا أعلم إن كانوا سيحتسبون تعثرك في نطق الكلمة بكلمتين أم بواحدة، لكن يروقني أنك ضحيت برصيد إضافي.

صمت قليلًا يمضغ ثم قال:

- المهم.. لم تسألني عطاءً رغم علمك أني آكل ورغم حاجتك لذلك.. أعجبني هذا.

صمتٌ جديد ومضغ..

- لقد زرتُ السِكِّير الذي أحبه، كان بائسًا جدًا هذه الليلة.

صمتٌ وشُرْب..

في المحكمة

أمي أقامت مأتمة

وانتشر المواسون الزائفون

ونصبوا مكلَمة

لأنني بالقفص

سرقتُ قلبًا من فتاة

فعشقتني مُرغَمة

هدوء..

قال القاضي للحضور

أمي والدفاع

والصُحفي ومندوب المذياع

ووالد الفتاة الموتور

اعرضْ المسألة

قال القاضي

للوالدِ الماضي

بمقاضاتي

ودفعي للمقصَلة

هذا ولدٌ لص

سرق من فتاتي قلبًا

وأقام بشِعرِه داخلها حربًا

بين عذوبته وحرصٍ بها

وأخرى

بين بلاغتِه وخوف واقترابِها

ففكَّرت بالحب

وخيَّرته

بين اعشقني وحدي دون القافية وتُبْ

أو اكتفِ بالشِعرِ وألقِ حبي بالجُبْ

فأوهمها أن الشعر تَرَكَه

وغدر بقلبها وسَرَقَه

وهي الآن بدونِه

يحيا بحبها

وتموت بجنونِه

هذا يا سيدي عرض المسألة

وأطالب بالعدل

والمقصلة

هدوء.. الدفاع

سيدي القاضي

هذا ولدٌ بيَّاع

للكلمِ والقافية

وهما كما تعلم

ولا تخفى عليكم خافية

عفريتان لهما تُبَّاع

لا فرار منهما

ولا فيهما عافِيَة

أرى أن يُبَاع

للعاطلين عن العمل

والهاربين من الأمل

أو لنوَّاب المذياع

يفككونه قطعة قطعة

ويعرضونها للبيع والمتعة

في متحفٍ خاص

للفقد والعقد

والنقض والنقد

وحبٍ بلا مناص

سيدرُّ دخلًا

تعويضًا للفتاة

وقلبها التيَّاه

الذي بات كهلًا

هدوء.. الأم

سيدي القاضي

إن كنتم ولابد قاتلوه

فأشركوني بالتِركة

واصنعوا من دمائه بِرْكة

لسقيا الزروع

ويكون لها ينبوع

في قلبي

وفي ديوانه الذي لم يُنشَر

وبطونٍ أهلكها الجوع

ومناقير الطير

ساكني الفروع

هذا أولى أن يؤدَم

بين ذكراه وبين أن يُعدَم

بلا خوف

وجَوف

به جوع

اعترض الأب

قال أريده كاملًا كتعويض

لابنتي وقلبها الفقيد

قال الدفاع بل تفكيكه

وتوزيعه على العاطل والهارب والمريض

وسَرَتْ همهمة

في صدر القاضي

وقافيتي

والمحكمة

ثم قال هدوء

هذا ولدٌ حر

أخبره قلبه أن ثُرْ

وليس يملك لا

إلا دعواتٍ لله

ألا تقتله الثورة

وتدور به الدورة

وأرى أن نعدمه إعدامًا

ضد طبيعته إقدامًا

نمنعه القلم

ورفعه للعلم

ونخبره كل تفصيلةْ عن الفتاة

وقلبها التيَّاه

دون وصل

ونفصلُ بينهما فصل

هذا حكمي فيه

ألا تسري قافية من فيه

ذاك للحر إعدامُه

أن يُحبَسَ فيه كلامُه

وأن يعشقَ خِلسة

انصرفوا يا سادة

رُفِعَت الجلسة

آه يا لالالي

آه يا لالالي

صمتٌ.. والأشياء التي تُفْقَدُ من العين..

- انصرف الآن يا حسن.. ولا تزحف.

لم أعلم إن كان يقصدني، لكنني استجبت.

وعند الباب قال:

- عِدني أن تظل صديقي للغد.

- ولماذا الغد تحديدًا؟

- افعل.

- حـ.. حسنًا.. أعدك.

- انصرف.

لبَّيتُ طلبه دون أن أعلم ما تعنيه "صديقي" تلك حتى، كان مهابًا جدًا في أول معرفتي به.. إبراهيم كان مهابًا على الدوام، كان مهابًا طوال معرفتي به.

****

" لماذا " حرام.. قائلها له جرعة مضاعفة من الخوف الأقل والانتظار الأقل بالعالم الجميل، لم نعد نقولها حتى بالسر لأن صنم الطاعة الذي صنعناه قد صنعنا له أذنين ضخمتين تمكنانه من سماع كل شيء حتى غير المنطوق، صنم الطاعة يسمع أفكارنا التي لا نفصح عنها حتى، ونحن قد أقررنا بهذا وآمنا به حين صنعناه على هذه الصورة، لهذا جعل النسيان بسبعٍ لتحفيزنا لمحو كل " لماذا " فاسدة قد تأتي.

لاحقًا تم إعدام مائة مواطن قالت الحكومة أنهم خالفوا رغبة الصنم ومرت بهم " لماذا " مرة على الأقل.. أنا الآن المواطن رقم ثمانمائة وواحد.. وإنني نسيت وإنني ساكن.

طرق مدينة العتمة ضيقةٌ جدًا ولا تتسع لاثنين من المواطنين بالسير جنبًا إلى جنب، هذا ما نعرفه عن طريق العودة من الساحة للمنازل وبالتأكيد شأنه شأن كل الشوارع الأخرى التي لا يعلم عنها أحدٌ شيئًا ولا يسير بها أحدٌ إلا القوات، نحن حتى لا نعلم إن كان هناك طرقٌ أخرى أم لا، ننهي طوابير الاستنشاق ونعود بيوتنا في طابورٍ آخر ينقص تدريجيًا بدخول كل مواطنٍ بيتَه، لقد أخبرني أبي الكثير من الأشياء عن هذه الشوارع قديمًا، وقد نسيتها كلها لأفوز بنقاط النسيان، العالم القميء أهم من ذكرياتنا وكل ما من شأنه أن يحرك شيئًا ما بالداخل، كثيرًا ما تحرك هذا الشيء بداخلي وكنت أقتله بإجبار نفسي على النسيان والسكون وفخر أمي بزيارة الوفد، كان يتحرك لأخي وأمي وأبي ووليمة الزوار وقياس النقاط ولم يعدْ.. وإنني نسيت وإنني ساكن.

البيوت منحة من الإله الرحيم، وهبها سكَّان مدينة العتمة لأجل حيازة قدرٍ أكبر من نقاط السكون، كل بيت بمساحةٍ تلائم عدد من فيه، حين يكون عدد الأسرة ثلاثة تكون مساحة البيت أكبر، ثم يُقتطع من البيت جزءٌ إن قل العدد لاثنين، ثم كذلك إن واحد.

المساحة التي يُهدمُ بناؤها تُضاف للمساحة الفارغة بين البيت والبيت الذي يليه، اتساع المسافات بين البيوت يعطي فرصة أكبر للسكون، أنا الآن مقيمٌ بثلث مساحة بيتنا القديم، وإني أشارك به فردًا من القوات، وإني أشتاقُ للثلثين اللذين لم يعودا هنا والشريكين اللذين لم يعودا هنا ولأخي الذي لم أرَه يومًا، نعم.. أنا أشتاق لمخلوقٍ لم أرَه يومًا.. وإنني نسيت وإنني ساكن.
إلى الحنين الذي كان يبدو ذا قيمةٍ قديمًا، لقد كشفتُك الآن.. وإنني نسيت وإنني ساكن.

موسم الحصاد يقترب.. خمس دقاتٍ للجرس ويحين موعد اصطفافنا لجني حصاد الوهم وإرساله للقصر لوضعه بالمضخات وإعادة شحن جرعات البرد والمرض، نحن بحاجة لها جدًا

الآن والإله الرحيم والمواطن واحد وصنم الطاعة كانوا رحماء بما يكفي ليُعجِّلوا بحصاد هذه المرة.. المواطن ثلاثة قال ذلك والمواطن أربعة قال إن علينا زيادة السجداتِ لعشرين اعترافًا بالفضل، العمل متوقعٌ أن يكون أكثر إرهاقًا وقد أصبحنا ثمانمائة مواطنٍ فقط لا يشارك عشرةٌ منهم بالحصاد أو الطوابير لأنهم أفراد الحكومة، حين كنا ألفين كان الأمر صعبًا بعض الشيء.. الحصاد الآن سيكون شيئًا قاتلًا بكل تأكيد.

صنم العتمة حرَّم " آه " .. قال إنها تعادل " لماذا " فسادًا، من يقولها يعني أنه يشتكي من خدمته لمدينة العتمة التي هي خدمته لنفسه ولرحلته للعالم القميء، هذا دليلٌ دامغٌ على الفساد.

****

- أنا مثل العالم.. بي جزءٌ مضيء رغم العتمة خلف البوابات، وشيءٌ قد يحبه أحد رغم وجود الحُكَّام، ورغبة في الاستمرار رغم كل هذا الكم من الجثث بداخلي.. وعدم قدرةٍ على جعل كل ذلك يبدو غريبًا لألتمس بعض العذر في طلب معاملةٍ أفضل. أنا لم أطلب من العالم أن يجعلني قويًا مثله، ولا قادرًا على الاستمرار مثله، ولا أن يجعلني مكانًا يؤلمه فقط أن يكون بجدرانه مسمار ولوحة لا أحبها، أنا فقط أردتُ أن يدفنوني بعيدًا حيث لا ينعيني أحد ولا يشعر بالفقد. أنا مثل الحب يا حسن.. ضحيةٌ وقاتل، ومثل الماء.. راوٍ ومُغرِق، ومثل شجرة البلوط الكبيرةِ التي كان يحبها إبراهيم الأصلي.. مُظِلَّةٌ ولا تفتقدك، أنا كل الـ" لا بأس " التي قيلت بعد خذلان، وكل الـ" سنلتقي " التي قيلت عند قبر، وكل الـ" صباح الخير " التي قيلت بدلًا عن " أفتقدك " .. أنا كل الذي لم يريده إلاي يا حسن، أنا الورقة المقطوعة من تاريخ المعركة وبها قصة حب القائد التي دفعته لتأخير الكرّ.. والهزيمة.

الجاسوس البطل هنا خائن هناك، وحامي الحمى هنا سفاحٌ هناك، أنا خط الحدود بين هنا وهناك ربما، أو.. أظن أنني خط حدودٍ آخر بين هنا أخرى وهناك أخرى لا نزاع بينهما ولا عليه، أنا أقل من أشهد نزاعًا على هوية، أكذب على نفسي أحيانًا بثقةٍ مفرطةٍ قائلًا أنني الهوية،

ثم بسذاجة مفرطة قائلًا أن العالم يحبني وقرر إبعادي عن كل مواطن الصراع، سأقول هذا الكذب وأصدقه جدًا لأنني أحتاجه بشكلٍ مرعب.. عِدنِي أن تظل صديقي للغد.

لم أفهم كالعادة، أكلتُ ما ناولني إيه، شعرت بما يفقده من عينيه، علمتُ أنه زار النحيف الذي يخاف منه، وعدتُه بما أراد.. ثم غادرتُ دون أن أزحف.

****

سنسجد مغمضين.. كان هذا ما قاله المواطن أربعة بعد حصاد الوهم، رغم أننا لا نرى شيئًا وعيوننا باتت قديمةً لا نستخدمها منذ وقتٍ طويل، إلا أن إغماضها به سكون أكبر وخاصة أثناء العبادات، لاحقًا قال المواطن أربعة أنه " فقأ " عينيه، لم نعلم معنى هذه الكلمة "فقأ " .. لكننا أدركنا فيما بعد أنها تعني التخلص الأبدي من العينين لأنه لا حاجة لهما في مدينة العتمة، كل فقءٍ لعينين يتبعهما زيادة في رصيد النقاط العتمية قدره عشرُ نقاطٍ كاملة، حين أعلن المواطن ثلاثة هذا توافد الجميع على ساحة الاستنشاق وبدأت القوات تقوم بعمليات فقء العيون وإعطاء النقاط، لم نقُل "آه" لأنها مُحرَّمة، لكنه كان يومًا شاقًا جدًا وقال المواطن أربعة أنه من الأيام التي رضي عنها الإله الرحيم والمواطن واحد وصنم العتمة وأن هذا الشقاء جزءٌ يسيرٌ من شقاء العالم القميء الأبدي الذي ينتظره الجميع.

****

- جعلوها مدينة العميان إذن.

قالها ولم يكن يمضغ هذه الليلة ثم استطرد بعد صمتٍ يسير:

- أصبحتُ الرائي الوحيد بينكم الآن.. حسنًا.. هذا يعطيني بعض الإحساس بالاختلاف أحبه.

- كـ .. كيف لا تموت؟

قلتها على مضضٍ مضحيًا ببعضٍ من رصيد كلماتي، لم يعد هناك من أدَّخرُ له حديثًا على كل حال.

- لأنني لا أريد.

- لا أفهم.

- كل ما هناك أنني خالفتُ بعض الأوامر وذهبتُ للبوابةِ وقت قدومِ زائرٍ قديم، الجميع كان يختفي من الضوء القادم وأحببته أنا.. لم يلحظني أحد، هؤلاء القوم باتوا يؤمنون إيمانًا كاملًا أنه لا أحد في مدينة العتمة يمكنه مخالفة أمر، بهذا يحكمونكم، يحكمونكم بكم.

ساد صمتٌ فقال:

- لاحقًا أصبحتُ أنتظر موعد قدوم الزوَّار وأتخفى للذهاب، بل وأذهب لسماع تلك الهمهمات الغريبة خلف البوابة في غير موعد فتحها، تخفَّيتُ مرة ومررتُ بالقصر، ومرةً ومررت خلفَ المضخات، وأخرى وراقبتُ المواطن ثلاثة والمواطن أربعة عن قرب، أصبحتُ أتقن التخفي وأستمتع بمشاهدة كل هذا العبث الذي يدور. أما عن الطعام فهذا أسرق بعضًا منه مما يُترَكُ للمواطنين في الساحة وأخزنه، وأحيانًا أتبع القوات التي تحمله كواحدٍ منهم وأقتطع ما أستطيع اقتطاعه قبل دخول القصر في مرحلة راحتهم الأخيرة قبل الدخول، العتمة التي تلف المدينة تعطيني قدرًا لا بأس به من القدرة على الاستمرار حيًا وسط كل هذا، هذا كل شيء.. انصرف الآن.

وعند الباب قال ما أنتظره:

- عِدني أن تظل صديقي للغد.

****

عدد القوات سيزيد مائة مواطنٍ آخر.. أعلنت الحكومة هذا وقالت إن صنم العتمة قد قرر مكافأة المائة فرد الأكثر صلاحًا بانضمامهم للقوات، أصبحت مدينة العتمة بتعداد ثمانمائة مواطن وواحد، عشرةٌ للحكومة، وأربعمائة للقوات، وثلاثمائة وواحد وتسعون للشعب.

أول مهمةٍ أُوكِلت للقوات الجديدة كانت مساعدة الشعب في إعادة تنظيم المدينة، هدمنا كل البيوت وأعدنا بناءها وأصبحت المسافات بين البيوت تسيرُ بشكلٍ متعرج والبيوت أقل مساحة، في السابق كانت المسافات بين المساكن مستقيمة رغم طولها ونستطيع أن نعثر على بيوتنا وبيوت الآخرين بسهولة، الآن لم يعد أحدٌ بإمكانه أن يعثر على بيتٍ آخر بالسهولة ذاتها، المواطن ثلاثة قال إن مدينة العتمة الآن من الأعلى أكثر تنظيمًا، كل بيتٍ واقعٌ في مكانٍ ما لا

يعرفه إلا صاحبه بحفظ الطريق بين الساحة والبيت، هذا يعطي فرصةً أكبر للسكون وزيادة رصيد النقاط.

بعد سبع دقاتٍ للجرس كانت المهمة الجديدة بناء شيء يُسمى الأسوار حول البيوت يفوق ارتفاعها ثلاثة أضعاف حوائط البيت، كل بيت يحيطه أسوارٌ أربعةٌ لها بابٌ صغير يقع خلفه البيت بمسافةٍ كبيرةٍ وخلف كل بابٍ يوجد فردٌ من القوات يعمل على حماية سكان البيت من شرور أنفسهم ويقتل من يظهر فساده وله الحق في دخول البيت والتجوال فيه وإيقاظ صاحبه أو منعه من الحديث أو حتى قضاء الوقت بالداخل بدلًا عنه، القوَّات هم أصحاب البيوت الحقيقيون وهذا شيءٌ لا خلاف عليه، إنهم من يحمينا ويضحي بنفسه لأجلنا عند البوابات ومواجهة النور وحمل الزوَّار وقتل الفسدة، من يحمي الشيء أحق به، لا أعلم صحة هذه المقولة وإن كانت نقيةً تمامًا أم لا، لكنهم قالوا ذلك وهم لا يخطئون، القوات هم أصحاب المدينة ونحن ضيوفهم، هذه قسمةٌ إلهية ونحن لا نرى غير ما يرى الإله، مدينة العتمة أصبحت تضم الكثير من الأسوار.. وبعض البيوت.

****

الفصل الرابع

سنحتفل ونسجد.. لم يعد هناك ما يسمى المواطن واحد، تقرر تسميته الإله اثنان، هو أجلُّ من أن يكون مواطنًا، إنه شريك الإله الرحيم ووليُّ النعم ومُصمِّمُ العالم القميء وشقاءه، إلاهان وصنم ومضخاتهم.. هذا كل ما لدينا لإحداث شيء ما يبعثنا للعالم القميء، سجدنا ألف سجدة في هذا اليوم اعترافًا بفضل الإلهين، في النهاية أعدمت القوات خمسين مواطنًا قالوا "آه" في السجدات بين التسعمائة والألف، نحن الآن سبعمائة وواحد وخمسون مواطن.. ونحن ننسى.

استنشقنا " أنا " .. هذا ما أضافوه مؤخرًا لجرعات الاستنشاق، قال المواطن ثلاثة إن هذا الاستنشاق هو أول ما خلق الإله اثنان وقرر أن يبدأ ألوهيته به، "أنا" هي أهم ما نملك بعد السجود، اجعل "أنا" مهمتك الوحيدة، "أنا" هي عكس "أنت" وهي عقار العالم القميء، "أنت" مثل النور.. عدو. "أنت" تعني أن ترى الآخر، إن رأيته ستفكر به، إن فكرت به ستخرق السكون، "أنا" تحميك من كل هذا وتوفر النقاط وتبقيك بمدينة العتمة وقتًا أطول، ولهذا خلقنا الأسوار، المواطن ثلاثة قال هذا وأمرنا المواطن أربعة بالسجود.. ونسينا.

****

- لـ .. لماذا لا يوجد فردٌ من القوات عند سورك؟

قلتها مُقِلًّا فقال بعد أن سمعتُ الصوت الغريب الذي لن يضعوه أبدًا بالمضخات:

- أنت تجلس الآن فوق قبره.

انتفضتُ كأنني رأيتُ النور، سمعتُ الصوت مجددًا ثم قال:

- قتلتُه.. اجلس، اجلس.

- كـ.. كيف؟

- لا شيء.. المشكلة الأساسية لسكان مدينة العتمة أنهم لا يدركون أنهم محكومون من أشباه كائنات، هم أضعف مما تظنون، يظن الواحد منكم أنه مُراقَبٌ في كل حركاته وسكانته وأنفاسه وأفكاره وعدد كلماته، يجعلونكم تستنشقون اللاشيء ويقنعونكم أنكم تتنفسون ما يبقيكم على قيد

الحياة، إنهم يسوقونكم بالوهم، أعيش بينكم منذ زمن بعيد لا أحضر الطوابير وأتعدى الكلمات العشرين بعشرينات أمثالها، أذهب للبوابة وأرى النور وأسمع مرافقي الزوار وآخذ لطعامي وما يقيني البرد، أزور إبراهيم والسكِّيرَ والنحيف الذي أخاف منه وأستمتع بذلك ويقتلني في آن، ثم حين وضعوا أحدهم ليفسد كل ذلك.. قتلتُه.

- سيعدمونك.

- حاذر لأنك نطقت الكلمة العاشرة للتو.. لن يعرف أحدٌ شيئًا، أرتدي رداءه وأجلس مكانه كل يوم، كل مواطني العتمة بالتكوين ذاته والشكل ذاته، العتمة تساعد على إخفاء الفروق الطفيفة، هم يريدون أن يظل الجميع بالبيوت، حسنًا.. البيت خالٍ وأنا بالخارج، التقسيم الجديد للمدينة أخفى الكثير من البيوت عن مقاصد زحف غير أصحابها ولو بطريق الخطأ، كانوا يريدون أن يجعلوا كل فردٍ هنا مدينة مستقلةً بذاته لا يشعر بما حوله، قد ساعدني هذا على إتمام الأمر دون خسائر، بل وأجعلهم راضين تمامًا بذلك أيضًا.. أنصحك بقتل هذا السافل هناك عند سورك ونطق أكثر من عشرين كلمة باليوم وسرقة لحوم الزوار.

- بمناسبة هدم البيوت.. ألم يعثروا على كل ما تخفيه من لحمٍ في البيت عند هدمه؟

- دفنتُه كله بالخارج قبلها ثم استرجعته لاحقًا.. الأمر بسيط.

لا أنكر أن الطعام كان رائعًا جدًا، يُشعرني بالجوع بشكلٍ أقوى من المضخات، أوراق الوهم كذلك التي يخفيها ويعطيني منها حين آتيه، تشعرني بالبرد بشكلٍ أقوى، أصبحت أشكُ أن بيت هذا المواطن غريب الأطوار هو العالم القميء.. أو جزءٌ منه موضوعٌ للاختبار وإعدام المخفق، ربما أنا أول المختبرين، وربما أخفقت، سأنسى ذلك وأسجد خمسين سجدة عند الصنم.. هذا أضمن وأحفظُ لي.

****

الدم وقود الخطايا، الصالحون هنا لا يسري بداخلهم دم.. تسري عتمة، الدم هو ماء الشيطان يقذفه بالفسدة في ليلة التنقية، هذه الليلة التي تأتي كل عام ويُقتلُ فيها العشرون الأكثر فسادًا بمدينة العتمة الذين قُذِفَ فيهم الماء، هم لا يتركون أبدًا للعيش ولو ثانية واحدةً بعد القذف، كل

أهل المدينة يجتمعون في الساحة وتمر القوات يقودهم المواطن ثلاثة والمواطن أربعة علينا لقتل العشرين الذين يستخرجونهم بطريقة لا يعلمها أحد.

شيء مريع أن تنتظر الموت، وشيء مريع ألا تعرف كيف اختاروك أنت بالذات لتموت، وشي مريع أن تقف بطابور لتنتظر ذلك، ليلة التنقية كانت كابوسي الخاص ولم أصرّح بذلك قط وبدأت أجتهد في استبعاده من تفكيري حتى لا يسمعه صنم العتمة وأموت بالليلة التالية، حين تقتل القوات الفسدة تسيل الكثير من الدماء التي يتكفل الشعب بإزالة آثارها بالزحف فوقها والسجود دون أن يراها حتى.

هذا قانون مدينة العتمة، يجعلوننا نزحف جيئةً وذهابًا ثم نسجد بالنهاية حتى نمحو الآثار ويعطوننا نقطتين، ثم ننسى كل هذا ونفوز بخمسة، لم تقتل القوات مواطنًا قط وسالت منه عتمة، كان المواطنون يرون هذا حين كانت أبراج العتمة الأقل بالجوار ثم أصبحوا يخبروننا هذا مع كل قتيلٍ جديد ويسجدون للإلهين والصنم لأنهم أحسنوا الاصطياد، وجود الدم في مدينة العتمة على الدوام دليلٌ دامغٌ أنهم لا يظلمون أحدًا ويحسنون انتقاء الفسدة من بيننا، ذات يومٍ شقَّ البابُ جلدي فأحسستُ شيئًا حارًا يسيل في خطٍ مائل، لم أرَه بعدما فقأوا العيون، لكنني تمنيتُ كثيرًا أن تكون عتمةً تسيل.

كنا نأكل كلامنا إذن كل هذا الوقت، أعلن المواطن ثلاثة أن نصائحه لنا بقلة الحديث والسكون كانت لأن صنم الطاعة يجمع كل الكلام الذي لم نقله من عقولنا ويضعه بالمضخات ليزيد من جرعات الجوع خاصة في أيام تأخر وصول الزوار، الجميعُ بات يجتهد في الصمت أكثر ليجوع أكثر.

سكان مدينة العتمة كانوا على استعداد للتضحية بأي شيء من أجل راحة البطن فقط، البطن التي ترتاح يعيش صاحبها وقتًا أطول، يسجد لسكان القصر بشكلٍ أكثر إخلاصًا، تسري بداخله العتمة لا الدم، تقل فرص إعدامه بتهمات الفساد، وتزيد الأخرى الخاصة بالسفر المريح من هنا. الداء كله في الكلام، وصمتنا هو العلاج الوحيد الذي أتاحوه.

****

- إبراهيم.. أتوا به إلى هنا قبل أن تولدَ أنت، كنتُ ساعتها المواطن الأخير بتعدادهم وطوابيرهم، وكنتُ أحبُّ نورَ البوابة، أعدموا أبي وأمي قبلها بيومٍ واحد، قالوا إنهما نطقا الكلمة الواحدة والعشرين، أحضره اثنان فقط وما يزالان يأتيانه حتى اليوم رغم كل هذه الأعوام بخلاف كل الزوَّار الذين يأتي معهم الكثيرون لمرةٍ واحدةٍ فقط لا يأتون بعدها.

" لم يكن لديَّ الوقت لأرحل بشكلٍ يفتقدونني بعده.. في الواقع لم تكن لديَّ الرغبة " .. قالها أحدهم وسمعتُ صوتَ شيء صلبٍ يحفر الكلمات خلفه، وكانا صادقَيْن جدًا هو والشيء الذي يحفر به، حسن يأتي لإبراهيم كل مدةٍ قصيرة ويحدِّثه عن الكثير من الفوضى التي تفوته بالخارج وهناك، لا أعلم أي خارج وأي هناك وما يكون الجيد الذي يمكن للمرء أن يفتقده في فوضى، يخبره أن " التي " لم تعد تهتم، وأن الوطن يشرب الخمر على مائدة القصر، وأن القلم هرب من دُرجِه وهو يعتذر عن ذلك لأنه لا طاقة له بالصمود وحده، لم أفهم كثيرًا مما يقوله حسن، لكنني علمتُ أن الجوع والعطش والبرد والخوف والانتظار والنسيان والسكون أشياء بشعة أهلكت إبراهيم أو أهلكت من حوله، لا أعلم تمامًا، لكنها تسببت في إحداث مأساة ما، هذا الإبراهيم كان شخصًا مجنونًا جدًا أو بائسًا جدًا أو نبيلًا جدًا.. هؤلاء الثلاثة فقط هم من يكرههم العالم وسُكّانه، وهؤلاء فقط من يقدرون على إحداثِ خلخلةٍ ما بالكون، وهؤلاء فقط من يعيشون طويلًا طويلًا طويلًا.

من يومها قررتُ أن أكون إبراهيم هذا المكان، ومن يومها أنتظر زيارات حسن لصديقه الذي أكلوه، ومن ساعتها وأنا أفهم الكثير عن شيء يسمى الضحك وآخر يسمى البكاء وثالث يسمى الشوق، ومن ساعتها وأنا لا أفارق البوابة إلا لأكون إبراهيم في كل مكانٍ غيرها، ومن ساعتها وأنا ليس لديَّ الوقت لأرحل بشكلٍ يفتقدونني بعده، في الواقع ليست لديَّ الرغبة.

- لذلك سميتني حسن؟

- أراك صديقي.

- ماذا تعني صديقي؟

- تعني شيئًا لا نخاف منه.

- والوطن؟

- شيئًا لا نخاف فيه.

- والتي؟

- كليهما يا حسن.. كليهما.

- حدثني عن أبويك؟

صمت قليلًا وسمعتُ صوتَ زفيره ثم قال:

- خرجتُ بعدهما من سعةِ البيت إلى ضيق العالم، العائلة هي العالم الوحيد الذي لا يطلب مقابلًا لجعلك بخير، لقد كانا يدَّخران كل كلماتهما ليقولاها لي أنا ولم يكن بينهما بسبب ذلك حديثٌ تقريبًا، أنا أدين لهما بالكثير.. لقد رحلا بسعة البيت، وتركا لي ضيق العالم.

- رحيلهما دفعك لكل هذا؟

- بل الحذر.

- لا أفهم.

- التطلع إلى المحذور يكشف لك كل شيء، لا تدع أحدًا يحذرك من شيء ما، اذهب للشيء واجعله يقتلك واستمتع أنك أشبعتَ فضولك، أن تكون قتيل تهورك وشغفك خيرٌ لك من أن تكون قتيل فضولك وعدم نيلِه، لقد حرموا الشعبَ من كل شيء حتى جعلوه مسوخًا تخاف أن تخاف.. فقضت أعمارها في خوفٍ جلَّابٍ لخوف، الذين لا يحذرون لا يفوتهم من حكاية الحياة شيء، قد يقضون حياةً قصيرةً بعض الشيء، لكن يكفيهم أن يحضروها كلها لا أن تُروَى لهم خلف الجدران.

- لا أخجلُ من أن أعترفَ أني لا أفهم نصف كلامك، كلماتك غريبةٌ لم أسمعها قبلًا وربما تكون لغةً أخرى لشيطانٍ أو شيء، لكنني لا أنكرُ استمتاعًا.

- ألا تدركُ أنك تخطيتَ الثلاثين كلمةً اليوم ومازلتَ حيًا؟ أصبحتَ متهوِّرًا بشكلٍ ملفت.

قالها فاستدركتُ مصيبتي وانتفضتُ قائمًا فأجلسني ثم قال:

- لا شيء حقيقيٌ هنا، الحقيقةُ الوحيدةُ أنهم يؤجلون الحقيقةَ الوحيدة.. الموت.

يأتون به حين يلمحون فهمًا، ويحبسونه حين يرون صنم الطاعة راضٍ بشكلٍ ما، لا شيء يبدو في مكانه، الحب لمن لا يستحق، الانتظار لمن لا يأتي، الطاعة لمن لا ضمير له، اليقين لمن لا يفهم، الموتُ لمن يصمت.. ممم.. ربما يبدو هذا في مكانه بعض الشيء. لا أحد يعلم من المسؤول عن كل هذه الفوضى ولماذا فعل؟ ما كان سيضيره لو وضع كلَ حبٍ في قلبٍ لا يتقن الرحيل، وكل انتظارٍ في غائبٍ لا يجيدُ الغيبة، وكل طاعةٍ ليدٍ تطعمِ ولا تحمل الموت باليد الأخرى، وكل يقينٍ في رأسٍ لا يضعفه السجود، وكل موت في جسدٍ لا.. لا بأس بهذا تحديدًا.

صمت قليلًا ثم استطرد:

- لا بأس بهذا، لم أعد أعلم أين يجب أن يكون الموت بالضبط، لكن وسط كل هذا الخذلان لا أعلم إن كان العادل الوحيد أم أشدهم جورًا.

صمت مجددًا ثم قال:

- أتعلم أنه في مكانٍ ما من الكون يعتبرون الجوع والبرد والخوف أشياء لابد أن تُجتَنَب؟

- أي كونٍ ومن الذين يعتبرون؟

- نحن لا شيء من العالم الكبير، مجرد كائناتٍ تحيا في جزءٍ منسي منه، إنهم يقلبون المعاني هنا بشكلٍ يستطيعون معه أن يسوقوكم أجيالًا خلف أجيال، لا يقلبون كل المعاني، يقلبون فقط ما يخدمهم لا الكل، لا أضداد هنا، لا حقيقةَ واضحة يمكنك أن تنالهم منها، كل الأمور رمادية عائمة إلا ما يريدونه أسودَ صلبًا.. هذا أسوأ ما يمكن لمخلوقاتٍ أن تحيا فيه.

صمت كثيرًا بعد هذه المرة ثم قال انصرف وأتبعها بقوله:

- عِدني أن تظل صديقي للغد.

****

في هذه الليلة علمني الكثير عن كل شيء، وددتُ لو سألته عن السكِّير وعن النحيف الذي يخاف منه وعن الـ"آه يا لالالي" ، كنتُ حَسَنَهُ وكان إبراهيمي بصورةٍ فجأتني وفجأَتْه، أخبرني أن هذا

الشعب به قوةٌ ما، قوته أنه لا يعلم، من يلقى كل هذا العناء ويظل منتظرًا شيئًا هو قويٌ بكل تأكيد، قوة هذا الشعب أنه لا يعلم أن كل ما يلاقيه عناءٌ بشكلٍ ما، ولا يسمى انتظارًا، في هذه الليلة تسللتُ لمنزلي من فوق السورِ ولم يدرك هذا فردُ القوات.. أو لم يتوقعه وقد ظنني بالداخل، وفي هذا اليوم نطقت كلمتي الواحدة والعشرين.

قصروا اليوم.. الجرس بات يدق أسرع، الإلهان كانا رحيمين بنا جدًا ليجعلوا المدة تقل بين طوابير الاستنشاق، سجدنا لهما ولصنم الطاعة وحمدنا ثلاثتهم كثيرًا على كل هذ الجد المبذول لإرسالنا للعالم القميء في هدوء، إبراهيم ضحك وأخبرني أن هذا سيقصر من عمر الألف يومٍ المقسومة لكل مواطن، لقد أرادوكم أن تموتوا أسرع، هذا كل ما في الأمر، نسيت.. وسكنت.
الحلم حديثٌ صامت، لذلك حرموه.. صنم الطاعة أصبح يسمع كل شيء بعدما أمدَّه الإله اثنان بأذن ثالثة صنعناها له بإمكانها سماع الأفكار والأحلام، السكون أصبح بعشر نقاط والنسيان مثله، توقفنا عن الحلم والتفكير واستمرينا بالنسيان، كان هذا مؤشرًا مبشرًا جدًا لكوننا مواطنين صالحين.

في الأيام التالية أعدموا عشرين مواطنًا حلموا أثناء النوم، المواطن ثلاثة قال إن أحلامهم تنوعت بين كونهم يستنشقون جرعاتٍ أكبر من المضخات أو أنهم أصبحوا بالعالم القميء، واحدٌ منهم فقط رأى بحلمه أنه سجد للإله اثنين والإله الرحيم فقط ولم يسجد لصنم الطاعة بعدما أرهقه السجود، بدأوا بهذا وأعدموه وقال المواطن أربعة أنه أكثر من سالت منه الدماء، صنم الطاعة سمع كل هذا وأخبره الإلهين والحكومة، ولاحقًا سيسمع ما كنا نوَّد قوله بعد الكلمة العشرين ولم نفعل خوفًا من الموت.. المواطن ثلاثة أكَّد ذلك.

الزائر الأخير كان ثمينًا بعض الشيء، جاء بعض انتظارٍ طويلٍ نلنا معه الكثير من النقاط، حين اختبأ الجميع من نور البوابة كالعادة وظل إبراهيم وحده يراقب من مخبأه انتشر النورُ في مملكةِ العتمة مصحوبًا بضوضاء أثارت الرعبَ وانتهت مع إغلاق الباب الكبير، حملوه لقصر الإله

اثنين كالمعتاد ولم تتأخر بقاياه هذه المرة في الخروج، أكل المواطنون كما لم يأكلوا من قبل وشعروا بالجوع كما لم يشعروا من قبل وسجدوا ألف سجدةً للإلهين والصنم.

" انتصارٌ مؤقت يؤخر الموت بعض الشيء، لابد أن يشعر المواطنون برضا صغير من وقت لآخر، هذا مفيد ليظل هناك شعبٌ يُحكَم، إن هلك المحكومُ هلكَ الحاكمُ.. مللًا " .. إبراهيم قال هذا بينما يأكل قلبَ الزائر الأخير الذي سرقه من القصر.

الفصل الخامس

هل كان رحيلُكِ حنقًا أم زهدًا أم تدللًا أم تمنُّعًا أم شفقةً أم عجزًا أم خوفًا أم طمعًا أم خيانةً أم فِرارًا أم لجوءًا أم اختبارًا أم اقتدارًا أم انتصارًا أم انسحابًا أم رغبةً أم بحثًا أم سخطًا أم اعتراضًا أم امتعاضًا أم غباءً أم غباءً أم غباءً أم قوةً أم مللًا أم كفرًا أم حبًا أم حبًا أم حبًا أم خذلانًا أم غفرانًا أم رحمةً أم غباءً أم غباءًا أم غباءً أم تضحيةً أم تبكيةً أم تصفيةً أم انتقامًا أم احترامًا أم اصطدامًا أم حبًا أم حبًا أم حبًا أم بغيًا أم عدلًا أم فضلًا أم قدَرًا أم ضجرًا أم عَوْدًا أم كرمًا أم هِرَمًا أم نذالةً أم جهالةً أم عدالةً.. هل كان رحيلُكِ غباءًا أم غباءً أم غباءً؟

قال ذلك ولم يقل آه يا لالالي، كان يتألمُ على ما يبدو وعلمتُ أنه مرَّ من عندها، كان يتعثر كلما مرَّ من هناك، شيء ما يفقده التوازن ولم يعلمه قط، كان يخبرني أنه لم يبحث عن كينونته، كان سعيدًا بتعثره عند هذا السور ويقول أنه الوحيد الذي يشعره أنه لم يفقد كل شيء من طباعنا بعد، وحين قلتُ أن هذا يعني أنك مازلتَ بالقطيع قال إن العثرة في اقترابي من السور دليلٌ على أنني عشقتُ حقًا، هذا هو الموضع الوحيد الذي لا أندم على تعثري فيه، الذكر الذي يخجل من التعثر عند أنثاه لم ينل من العشقِ إلا أكذوبته.

كلامه كان عثيرًا عليَّ فهمه، لكن صوت إبراهيم لم يكن أبدًا بهذه العذوبة إلا حين يتحدَّث عن "التي" وتعثره عند سورها، صوتٌ يستغيث بشيء ما، صوت يصلح للغناء أو لحديث قصيرٍ مع صغيرٍ نخبره فيه أن الإله يحبه لأنه ساكتٌ ويطيع، صوتُ إبراهيم في حكيه عن "التي" وعجزه المسكوب عند السور كان مثلي.. مواطنٌ صالح. وكان هذا كافيًا ليشعرني أنه يعاني بشكلٍ ما.

- لها أخٌ تركهم لأنها جاءت.

قال ثم استطرد:

- إنها مثلك، صالحةٌ لهم وغير صالحةٍ للحياة، أخوها سافلٌ يظنونه الآن مُنعَّمٌ في عالمهم القميء، لم أشعر بأي ذنبٍ حين قتلتُ هذا الأحمق.

- أي أحمق؟

قلتها منتفضًا فقال بهدوء:

- أخاها.

- بهذا الهدوء؟

- شعرتُ أنه سببٌ في جعلها تعيش هذه الحياة الصامتة وتخفي داخلها كل هذا الحزن والشعور بالندم، استطعت رؤية ذلك فيها، لا يصمتُ هذا الصمتَ إلا خائفٌ أو نادم، هي كلاهما وأنا عاشقٌ نبيل.

- فقتلتَه.

- بالضبط.

- مبررٌ لا بأس به.

- وجهُك من النوع الثابت، وجهٌ لا يسافر ولا يرقصُ بعهرٍ حين يكون وحدَه، إما أنه لقى كثيرًا حتى وجد الصمتَ أغنى، وإما أنه خائفٌ أن يفعل.. في الحالتين هو وجهٌ ميت.

قالها فجأة بلا تقديم فآثرتُ الصمت، كان صادقًا في هذا على كل حال، لكنني لا أحبُ ضعفي أمامه بالذات.

سكوتٌ من جديد..

****

نحن أشياء.. هذه الأرض لم تعد لنا ونحن الآن في ضيافة الإلهين والصنم والقوات، لقد أسرفنا كثيرًا في الفساد ولم نعد نستحق الانتماء إلى هنا، نستحق أن نُمنَع من لقب "مواطن" ونستبدله بـ"شيء".. الإله اثنان كان صاحب قرار وضعنا بمرتبة أقل بدلًا عن الإعدام، نحن مدينون له بالكثير جدًا، سجدنا في هذا اليومِ كما لم نسجد يومًا، لا شيء يستحق الشكر مثل النجاة من الموت، إعطاؤنا فرصة أخرى للحياة واللحاق بفرصةٍ بالعالم القميء، لم يعد لقب المواطن موجودًا إلا للقوات، ما دون القوات أشياء فقط، أنا الآن الشيء رقم ثلاثمائة وخمسين، ونحن الآن بمدينة العتمة أربعمائة مواطن، وثلاثمائة وخمسين شيئًا.. وإبراهيم.

حين فعلوا ذلك قال المواطن ثلاثة أن الإله اثنين قرَّر منحنا "فُتات"، إنه شيءٌ من شَعرِ الزوار وأظافرهم سيمنحونه لنا كلما تأخَر قدوم الطعام، الفُتات سيبقينا أحياء بشكلٍ كاملٍ وهو مِنَّةٌ جديدةٌ من الإلهين الرحيم واثنين، حين مُنحنا الفُتاتَ الأول سجدنا ثلاثين سجدةً وعُدنا البيوتَ نُسبِّح بالحمد، منذ هذا اليوم ونحن نعشقُ الفتاتَ خصيصًا من بين كل عطايا الإلهين والصنم لأنه المنة الوحيدةُ التي تعلَّقت بالبطن، ونحن نعشق بطوننا جدًا.

ثم حرموا "الرغبة" .. الرغبة تعني قلة الثقة في قدرة الإلهين على تسيير الأمور بالتقدير المناسب، لا ترغب بجوعٍ أكثر، الإلهان أعلم بما يناسبك ويمنحانكه، لا ترغب بألمٍ أكثر، الإلهان أعلم بما يناسبك ويمنحانكه، لا ترغب بنسلٍ أكثر، الإلهان أعلم بما يناسبك ويمنحانكه، لا ترغب بأي شيء، الإلهان أعلم بكل شيء، أنت حين ترغب تخبرهما أنك تريد تعديلًا على ما قدَّراه، هذا يعني كفرًا بيِّنًا، وهذا لا جزاء له إلا الإعدام. بعد ست دقاتٍ للجرس أعدموا أربعةً رغبوا، أحدهم رغبَ بجرعةِ انتظارٍ أقل لأنها تشعره بدوار، والآخر بورقةٍ وهمٍ استثنائيةٍ لأن جرعاتِ البرد لا تكفيه، والثالث دار بفكرِه أن به رغبةٌ في رؤية الإله اثنان، هذا سمعته أذن الصنم الإضافية.. وهذا أُعدِم أولًا.

في ليلة التنقية التالية سال الكثير من الدم واستهلكنا وقتًا أطول من المعتاد في إزالة آثار العشرين القتلى والزحف فوقها، التاسع عشر والعشرون كانا أبًا وابنته، والسابع والثامن كانا أمًا وابنها، أسوأ ما في مدينة العتمة الآن أن الفساد أصبح مُدارًا بين أفراد البيت الواحد وهو ما يعني أن الشيطان بات أكثر ذكاءً في حربه ضدنا، رغم كل ما فعله الإلهان في تقسيم البيوت وفصل أفراد العائلة الواحدة إلا أن ماء الشيطان الأحمر مازال يجد طريقه بيننا.. شيء مؤسف أن يظل بعض أفراد الشعب عندهم دم بعد هذا كله.

القيدُ سيبقينا بأمانٍ أكبر.. المواطن ثلاثة قال إن الحكومة قد صنعت قيودًا لكل " الأشياء " .. الأشياء فقط.. نحن بحاجةٍ لحماية من أهل الشر المختبئين بيننا ويفور بداخلهم دمٌ ولا تسري عتمة، القيد يحمينا ويمنعنا الحركة إلا الحركة التي تريدها القوات ويمقتها أهل الشر أغنياء الدم،

السير للطوابير وحصاد الوهم فقط، كل ما عدا ذلك عبث، أصبحنا نسيرُ بالقيد، يربطوننا منه في شيءٍ صلبٍ جاءوا به من البرزخ يُسمى الأحجار وضعوه بساحات الاستنشاق، نُربطُ حتى ننهي الاستنشاق، ثم نعود نجرُ قيودنا حيث نُربَطُ من جديدٍ بأحجارٍ وضعوها لنا بالبيوت، القيود من خلقِ الإله اثنين، والأحجارُ أوصى بجلبها صنم الطاعة، لقد أثبت كلاهما أنهما أكثر من يحرص على بقائنا أكثر، وهم أشدُّ من يريد أن يرسلنا سالمين للعالم القميء.

****

- العالم كله سيخشاني يومًا.. حتى أجنة البطون.

قالها لي فجأة بينما نمضغ بعض ما سرقه ثم استطرد:

- حين أفعل.. سأجعلُك المواطن اثنين الذي لا يعرف أحدٌ عنه شيئًا، السكون القاتل يليق بك.

ثم مضغ وقال:

- أنا أمتلك قلبًا صادقًا مثل هذا الذي نأكله.. هذا قلبٌ محب.

- وما أدراك به؟

-هذا قلبٌ سهل البلع، هذا دليلٌ على أنه مُضِغ قبل الآن مرارًا إما بحبٍ لم ينله أو حربٍ لم يظفر بها، هذا عاشقٌ لم يُعشَق، أو محاربٍ قتلوه.

- إنه مازال ينبض.

- هو كلاهما.. هو كلاهما.

سكَتَ ولم أنطق.

- الله خلقني من ثرى المدينة التي قُصِفتْ، ثم قُدِّرَ لي أن أتزحزح قليلًا لأعطي الفرصَة لزهرةٍ تحتي لم تنلها القنبلة، وأن أبصق على الترابِ حولي ثم أندم، أجفِّف بصقتي وأعاود ذلك حتى مماتي بقصفٍ قادم، أن أنظر لبقايا البيت خلفي والدمية التي فقدت ذراعين وأسِيرَ نحوهم للدفن بالتراب الذي بصقتُه.. الله علمني الأسماءَ كلَها، "التي" للزهرة، "الوطن" للتراب، "الحلم" للبيت، و"المواطن" للدمية.. حين سألتُ عن اسمي أنا أوحى لي أن ابتهلَ أكثر لأحصلَ على واحدٍ مناسب مثلهم، ابتهلتُ فنبَتَ لـ "التي" برعم، ابتهلتُ أكثر فنبَتَ أكثر، ابتهلتُ أكثر وأكثر

فنبَتَ أكثر وأكثر، سمعت من قال "هي أحقُّ بك" .. وأنا الآن الحجرُ "هي أحقُّ بك" وأنتظرُ القنبلة معها ومع "الوطن" ومع بصقاتي ومع تجفيفها ومع ما دفنتُه به.

- النحيفُ الذي تخافُ منه؟

- أصبحتَ تفهمني بشكلٍ لا بأس به.

أكلنا وقال انصرف، انصرفتُ وأوقفني عند الباب، قال:

- كُن حذرًا في عبور السور الليلة فلا يراك مواطنهم، أحتاج صديقًا.

- تحذرني لأجلي أم لأجلك؟

- لأجلي..

صمت قليلًا ثم قال:

- عِدني أن تظل صديقي للغد.

كان صادقًا ووقحًا وكنتُ أحب ذلك.. المواطن إبراهيم كان حدثًا مهمًا في قصة مدينة العتمة، وفي تلك الليلة بدأت حكاية معاناته لدينا بشكلٍ ما.

حين اختل توازن تسلقي السور وقعت، وحين أمسك بي فرد القوات قلت أنني رغبت في سجودٍ إضافي في غير الموعد، وحين سمعتُ صوتًا أنثويًا بجوارنا لم أستغرب تركه لي وتوعدي إن كرَّرت الأمر، وعندما زحفت أمامه للداخل مقدار ذراعين سمعت صوتَ " آه " مكتومة، لم أرَ شيئًا بعدما فقأوا رؤياي قديمًا، رائحة إبراهيم تقترب ويسأل:

- أنت بخير؟

- نعم، مـ.. ماذا حدث؟

- كنت أراقب وصولك آمنًا ورأيته يستوقفك، جئت أنقذك.. وقتلتُه.

- مـ.. ماذا؟

- قتلتُه.. ليلةً سعيدة.

قالها وسمعتُ خطواته تبتعد فاستوقفتُه وعاد:

- هل ترى الأمر بهذه السهولة؟ سوف نُعدَم.

ضحك وقال:

- على الأقل سيكون لدينا فرصة لاستكشاف عالمهم الجميل هذا.

- كان بصحبته أنثى.

- نعم، ربما، لاحظتُ ذلك.

- وأين ذهبَتْ؟

- لا أعلم.. ربما فرَّت، لم أكن لأقتلَها ولم تُذنِب بشيء.

- هل جُننت؟

- من أين علمت معنى جُنِنتَ هذه؟ هه.. يبدو أنك أصبحت زائرًا للبوابة دون أن أدري، لقد تغيرتَ كثيرًا يا حسن.

صمتَ ولم أجد ردًا فقال:

- أشعرُ برغبةٍ شديدةٍ في النوم، سأنصرف الآن، أحلامًا سعـ.. أقصد نومًا سعيدًا.

****

كان غريبًا جدًا في هذه الليلة، لقد قتل أحد أفراد القوات للتو، وهربت من ستفشي سره، ثم ذهب للنوم والأحلام السعيدة التي حرّموها، ربما أصبح حريصًا عليها أكثر بعدما حرموها.. أكيد.

جاءتني القوات.. كنتُ أنتظرهم وأنتظر قتلي على يديهم هذه الليلة على كل حال، أخلصتُ في الانتظار أملًا في حيازتي بعضًا من نقاطه قد تصرفهم عني وتخبرهم أنني مواطنٌ صالحٌ العالم القميء يليق به أكثر، وتسري بداخله العتمة لا الدم سائل الشيطان.

أتوا ولم يكسروا الباب، سجدتُ تلقائيًا حين دخلوا لا أدري استعطافًا أم تدينًا أم وداعًا، فطرتي فعلت ذلك وداس أحدهم فوق رأسي تمهيدًا للذبح، شعرتُ به، حين اطمئنوا لسكوني تمامًا كنتُ قد شككتُ أنني الآن بالعالم الجميلِ وإني قد قُتلتُ، ما أعلمه أن القتلَ يسببُ بعض المعاناة وليس

بهذه السهولة التي تمت، لمَّا سحبني أحدهم من أقدامي علمتُ أنني مازلتُ هنا، لقد سحبوني في هذه الليلةِ طويلًا طويلًا حتى ظننتُ أن هذا إعدامٌ من نوعٍ آخر جعلوه للأكثر فسادًا.. أو للأقل.
تمنيتُ الأخيرةَ وأصرَّ شيءٌ داخلي على الأولى، الذين لا يخطئون كثيرًا لا يبرعون في الموتِ بهدوء، المهذبون، الهادئون، السخيفون الذين يحبون حذاءَ الحوائط أكثر من عرض الطُرُق، والطوابير أكثر من التغيبِ عنها، ويروقهم أن يمدحهم المُدراء السفلة أصحاب الكروش وروابط العنق لأنهم لا يسببون المشاكل، هؤلاء يموتون أسرع.. ويأتيهم الموتُ متأففًا لأنهم فرائس سهلة والموتُ مقاتلٌ صنديدٌ لا تقنعه حربٌ يسيرةُ منال.. "إبراهيم أخبرني كل ذلك لاحقًا حين قرروا أن نموت معًا" .

حين مرَّ عليَّ بمكانٍ ما لم أعلمه خمسون دقةُ جرسٍ وعشرون جرعة استنشاق للخوف والانتظار، وبعضُ من لحم أبقاني حيًا.. أتاني أحدهم مجددًا وأخبرني أنني مازلتُ بمدينة العتمة لم أغادر للعالم الجميل بعد.

- الشيء ثلاثمائة وواحد وخمسون، يعيش وحيدًا، وكان شاهدًا على حادثة قتل الفاسد لفرد القوات، الشاهدة الوحيدة تقول أنه تحدث مع القاتل قليلًا بعد حادثة القتل ولم يحاول أن يبلغ عن الحدث، الأنثى الشيء رقم ثلاثمائة وأربعة عشر سمعَتهما قبل أن تهرب وتبلغ عما حدث.. هذا يعني أنه على علاقة ما بالفاسد.. حسنًا.

سمعتُ هذا عن أمامي فأتاه صوتٌ آخر يأمر أحدًا ما.
- ضع يده بهذا القيد، سيشحنه بمائة كلمةٍ سنحتاجها أثناء الاستجواب.
القيدُ يعطينا طاقة.. هذا سمعناه قديمًا من المواطن أربعة وآمنا به، الوضع الآن يثبتُ صدق ما قاله، هممتُ أن أخبره أنني قد سبق ونطقتُ واحدًا وعشرين كلمة وربما أكون جاهزًا لنطق مائةٍ دون قيد، لكنني تراجعتُ وأيقنتُ أن هذا كان صدفةً فقط، وكرهًا زيادةً من الصنم لي ليتغاضى عن ذلك مرة.
- ماذا تعرف عن الشيء ثلاثمائة وخمسين؟

- يسـ .. يسبقني بالطوابير ويسكنُ البيتَ الأخير.

- و؟

- لا يزحف.

- و؟

- ليس مفقوء العين.

استمر الصمت حولي لحظة، أظنه كان تعجبًا.. أو تكذيبًا.

- اسلبوا نصف نقاطه، لا تقتلوه الآن.. سنحتاجه.

كنتُ حريصًا على ألا أكذب، حتى وأنا على شفا الموتِ كنت حريصًا على حصد أكبر قدرٍ من النقاط، كان شعورًا قاتلًا أنني سأنتهي لهذا المصيرِ رغم كل ما بذلت، لقد زحفت، وجعت، وتألمت، وخفت، وانتظرت، ونسيت، وسكنت، وبنيتُ صنمًا وسجدتُ له، لقد فعلتُ كل ما يؤهلني لأكون مواطنًا صالحًا لديهم وأبتعد عن أهل الشر الذين عندهم دم، حتى لو أخطأت بنطق الكلمة الواحدة والعشرين ذات مرة، لقد ظننتُ أن صنم الطاعة استثناني من الموتِ ليلتها لأنه يكرهني أكثر من البقية، لقد كان كل شيء يسير على ما يرام بطريقةٍ ما حتى جاء هذا المتغطرس الذي يحب النور وتكسير القواعد، لقد قتلني إبراهيم بنوره، وأنا الصالح الذي طالما سارت به العتمة.

لقد حافظتُ على سجودي هناك، هذا المكان الذي وضعوني به ولم أعلم له اسمًا كان مخيفًا جدًا رغم أنني لم أرَ منه قدرَ أنملة، القيدُ كان مطمئنًا بشكلٍ كبير، القيد بمدينة العتمة يعطي أمانًا أكبر، أنت حيٌ لأنك في قيد، وأنت ميتٌ حين تدَعْه، كنتُ حريصًا على استغلال وجود القيدِ بأطرافي واستغلال طاقته في حصد بعض النقاط التي قد تشفع لي عند الإلهين والصنم.
في هذه الأثناء سمعت فردين من القوات خلف جدارٍ ما من المحيطين بي يتحدثان عن تحريمٍ جديد، لقد حرموا شيئًا يُسمى العدل، العدل ليس إلا ظلمًا أقل، والإله اثنان لا يعطي قليلًا، الظلمُ قرينُ العتمة، كل من يذوقُ ظلمًا يختلط بالعتمة داخله ويعطيه عمرًا أطول، الظلم هنا رزقٌ من

الإلهين يستوجب الشكر والسجود، والعدلُ مثل النور وفوران الدمُ بالأجساد، أعداءٌ من العالم الجميل.

في المراتِ التالية لزيارة قوات التحقيق طلبتُ جرعاتٍ مضاعفةً من الظلم، أحتاجُ مزيدًا من العتمة داخلي لأنال بعضًا من صفح الصنم كما فعل ليلة الكلمات العشرين وواحد، قالوا اسجدْ وتألم أكثر بوضع رأسك تحت حجرِ القيد، القيدُ ساعدني على السجود أكثر، والطلبِ أكثر، والحديثِ عن إبراهيم الذي يبحثون عنه للقوات أكثر.

سمعتُ من القواتِ خلف الجدار أنه قتل اثنين إضافيين منهما ذهبا لإعدامه واختفى، كان هذا أول مواطـ.. أقصد شيء.. يجرؤ على كل هذه الحماقات في تاريخ مدينة العتمة، الغريبُ أن الإلهين لم يقتلانه ولم يذبحه الصنم، هذا الإبراهيم أصبح حدثًا يتحدى كل ما أخبرونا به وينجح.. لذلك سينال عقابًا مضاعفًا من الإله اثنين على وجه الخصوص.

الفصل السادس

أنا الآن حر.. هذه أبشع جريمة من الممكن أن يرتكبها "شيء" في مدينة العتمة، الحرية تعني أن تتمرد، أن تتمرد تعني أن تخالف، أن تخالف تعني ألا تسجد، ألا تسجد تعني أنك كفرت.. الحر في مدينة العتمة كافر.

المواطن ثلاثة قال هذا حين أوقفوني أمام الشعب للعظة، قال إن كل من ينفكُ من قيدِه حر، والحر كافرٌ ولا تسري به عتمة، بل يفور الكثير الكثير من الدم، في هذا اليوم قال المواطن أربعة لأشياء مدينة العتمة أن الإله اثنين قد قرَّر إضافة قيدٍ آخر ليحميهم من كُفر الحرية ورفض السجود كي لا يكونوا مثلي وينتهي بهم الأمر للعالم الجميل، وحين هممتُ بالقولِ أنني أسجدُ بشكلٍ مكثف هذه الأيام رغم أنني حرٌ كما يقولون لم أستطع، تذكَّرت أنهم سحبوا مني كل رصيد كلماتي قبل الخروج، قال ذلك أحدهم وهم يضعون شيئًا ما حول رأسي لم أفهمه. آلمتني جدًا هذه التهمة.. حر.. يا لبؤسي، أبعدَ كل هذا التاريخ من السجود والقيد وحصد الوهم وتقديس الخوفِ والنسيان لي ولأسرتي يتهمونني بذلك؟ في هذا اليوم شعرتُ أنني أكثر أشياء مدينة العتمة بؤسًا عبر تاريخها.. كنتُ مُحقًا.

لقد ضخوا "اليأس" هذا اليوم بالمضخات، اليأس شريكُ يميتُ الرغبة، والرغبةُ أم الآثام، اليأس كان من خلقِ الإله اثنين ونعمِه التي استلزمت عددًا من سجداتٍ إضافية، المواطن أربعة قال إن اليأس يساعدُ على الحياةِ لمُددٍ أطول، وهذا ما نحتاجه تمامًا.. "الأمل" حرّموه، هذا شيء قالوا عنه أنه يقصِّر العمر في هذا المكان، في هذا المكان بالذات بشكلٍ ملحوظ، الأمل يجعلك راغبًا في حاجة، والرغبة أم الآثام، الرغبة حرام.. حرامٌ بشكلٍ قاطع.

لماذا لم أكذب؟ لماذا لم أدافع عن إبراهيم وهو الذي قدَّم لي الكثيرَ من الأنس بعد رحيل أبويّ، والكثير من الطعام بعد تأخر مجيء الزوَّار، والكثير من الأحاديث غريبة الأطوار حول الوطن و"التي" وحسن والكثير من الأشياء التي لم أفهم ما ترمي إليه، لماذا لم أكذب؟.. لا أعلم، كنتُ

حريصًا على حصد أكبر قدرٍ من نقاط العتمة، شعور أنني لستُ صالحًا مثل أخي كان قاتلًا، لقد فعلتُ كل ما طلبوه وأكثر، سجدت، شيدتُ صنمًا وعبدته، زحفت، كرهت، جعت، تألمت، خِفت، انتظرت، سكنت، ثم نسيتُ كل هذا.. لقد فعلت كل ما يجعلني صالحًا بهذه الأرض وفعل إبراهيم كل ما يثبت أنه أكثر من يفور بداخله الدم، أنا الآن بالمكان الذي سمعتهم يقولون عنه "سجن" وبي قيدٌ يحميني، وهو مازال معرضًا نفسه للهلاك بحريته.

لم يقتلوني حتى اللحظة، كانوا يسألونني كل يوم عنه، يخبرونني أنهم منحوني مائة كلمة للرد، في كل مرةٍ أخبرهم الصدقَ تمامًا لا يصدقون، وددتُ لو سألتهم لماذا لا يحتكمون لصنم الطاعة، إنه يسمع كل شيء، سيسمع أفكاري وأحلامي ويعلم أنني مازلتُ مواطنًا صالحًا يستحق القيدَ وجرعات الظلم، كنتُ أجبُنُ في كل مرة، ربما يعتبرونني متحديًا أو مُشيرًا عليهم أمرًا، أظنهم يعلمون كل شيء وأذن الصنم التي شاركتُ في صنعها أخبرتهم كل شيء، هم فقط يختبرونني لإثباتِ أني أحمل العتمة لا الدم، والأكيدُ أنني أسير الآن بخطى ثابتة نحو العالم القميء، ونحو إرسال الشيء إبراهيم إلى حيث يستحق ويعدمونه.

في وقفتي التالية على المنصة علمت أن سُكَّان مدينة العتمة قد نزلوا مرتبة أخرى بعد مرتبة "الشيء" .. هم الآن أصفار، الصفر سبعة عشر والصفر واحد وثلاثون تم إعدامهم فورًا لأن صنم العتمة سمع أفكارهم تناديهم في أحلامهم ب"شيء" ، مدينة العتمة أصبحت مدينة الأصفار السُجَّد النسَّائين الزاحفين في قيد.

الإله اثنان قرر إعطاءهم مزيدًا من الفرص رغم رعونتهم وأفعالهم الكفيلة بفنائهم وإرسالهم للعالم الجميل، الإله اثنان يكرهنا جدًا ونحن نكرهه بشدة، إنه سر بقائنا هنا، وهو من أنبتنا بهذه الأرض وحمانا مع الإله الرحيم من مصير العالم الذي عصى في الماضي السحيق، حين قالوا أننا أصفار سجدنا شكرًا وقال المواطن ثلاثة أن السجداتِ قد زادت مائة إضافية، وأن المضخات بدايةً من الجرس القادم ستضخ شيئًا يسمى "الخطر" ..

الخطر يحمينا من كلِ عبثٍ نحدثه، نحن لابد أن نشعر على الدوام بالخطر كي نبقى وقتًا أطول تحت حماية صنم الطاعة والإله اثنين، حين استنشق الأصفار أول جرعةٍ للخطر قال المواطن ثلاثة أن الخطر يعني ألا تشعر بالأمان إلا في حضرةِ الإله اثنين والإله الرحيم وصنم العتمة، حين قال الإله اثنان قبل الإله الرحيم على عكس الترتيب ظنَّه الجميع قد أخطأ، لكنه حين كرَّرها قائلًا أن الإله اثنين والإله الرحيم وصنم الطاعة قد قرروا وضع صنمٍ صغيرٍ بكل بيتٍ للتبرّك والتزام الصمت وضمان بقاء الشعور بالخطر.. علمنا أنه قد قصدها تمامًا، وأن ثمة تعديلاتٍ حدثت في ترتيب الألهة في المدينة.

وجودي بالطوابير كان غريبًا، استمرار اختبارهم حتى الآن كان غريبًا، عدم قتلي لحظيًا كما البقية إن لم يكن اختبارًا فهو أكثرهم غرابة، عزائي الوحيد أن صنم الطاعة يسمع كل شيء ويعرف كل شي، كان هذا مطمئنًا بشكلٍ كبير، على الأقل سيوقف القوات عن تنفيذ حكم الإعدام في الوقت المناسب.. المناسب تمامًا.

- لم يعد هناك وقتٌ يسمح بالصبر أكثر.. أين يوجد الخائن؟

حين قالها لي أحدهم لم أعرف ما تعنيه تلك الكلمة.. خائن. لكنني أدركتُ أنها لإبراهيم، وأنها تعني فاسد ربما أو حر أو أي شيء من شأنه أن يبعث للعالم الجميل.

- لقد.. لقد أخبرتكم كل شيء، ربما.. ربما يكون بالبيت الأخير، إنه يختزن هناك الكثير من الطعام يكفيه للاختباء وقتًا كبيرًا. أو.. لا لا.. أظنه عند أرض الوهم، لقد أخبرني يومًا أنه يذهبُ هناك في غيرِ أوقاتِ الحصاد لأنه يحب الشجر المحارب.. انتظروا.. انتظروا.. لا شك أنه عند البوابة.. نعم.. البوابة.. إنه مخبولٌ ويحب النور جدًا.

- أنت مصرٌّ على تنفيذِ الإعدامِ المؤجل إذن.

- لا لا.. لماذا.. لماذا لا تسألون صنم الطاعة عنه. أذنه التي شاركتُ في صنعها بنفسي قادرةٌ على سماع كل حرفٍ ينطقه أو يفكر فيه مواطن.. أقصد صفرٌ عتمي، اسألوه حتى عن صدقي أو كذبي إن كنتُ أخفي شيئًا، أنا أستحق أن يظلمني صنم الطاعة.. أنا أستحق ذلك ولست فاسدًا.

- جهزوه للإعدام بعد دقة الجرس القادمة أمام الأصفار.

لم يكن لديَّ وقتٌ لأنطقَ بشيء إضافي، ربطوا الضمادة وسحبوا رصيد الكلمات، لا أعلم إن كانوا سيجعلونني أنطق الشعار ذا الكلماتِ الست أم سيكتفون بما قلتُ عقابًا.. "فاسد" كانت آخر ما أقوله في هذا العالم، هذه إشارةُ سخطٍ من الإلهين والصنم، ربما سأذهب لمكانٍ أسوأ من العالم الجميل أعدُّوه خصيصًا لنزلاء "السجن" .. ربما صنع الإلهان مكانًا رابعًا إلى جوار العالمين والبرزخ لا جوع فيه ولا عطش ولا برد ولا خوف ولا انتظار ولا نسيان ولا خطر، مكانٌ ليس بشقاءٍ أقل، وإنما بلا شقاءٍ أصلًا.. هذا مرعب.

وضعوا قيدًا إضافيًا بالرقبة، لوهلةٍ فكَّرت أنهم بهذا يعطونني فرصةً لحصد نقاطٍ قد تنجي في اللحظاتِ الأخيرة، بعضُ الأمل لن يكون سيئًا جدًا في هذه الأوقات، صحيحٌ أنني سأخسر بعض نقاط اليأس، لكن نقاط القيدِ أثمن، البيعُ رابحٌ بكل تأكيد، ليتهم تركوا لي بعض الكلماتِ لأتوسَّلهم بقيدٍ آخر أو عشرة، لا بأس.. حين تحين دقة الجرس التالية ويصحبونني للإعدام سيتدخَّل صنم العتمة والإله اثنان وربما الإله الرحيم لفعلِ شيءٍ ما حيال ذلك، أحد الثلاثة على الأقل سيسمع سجداتي طوال هذا الوقت أو يراني بالقيد والخطر، هم رحماء بما يكفي ليتغاضوا عن بعض الأمل الذي يعتريني الآن، لكنهم من دفعوني إليه وعليهم التصرف حيال ذلك بشكلٍ ما، إنهم آلهة ويستطيعون ذلك.. لابد.

لم أرَ السجن مكانًا سيئًا، يبدو مكانًا جيدًا يحوي كل ما نحتاجه لنبقى وقتًا أطول بشكلٍ يروق للآلهة والحُكَّام، الخطر، الخوف، الانتظار، السكون.. ربما يُفسدُه فقط ويفسد رضا الألهة والقصر عنا أنه أحيانًا يحوي بعض الأمل، أتمنى أن.. اللعنة، أقصد أرغب في، لا لا ليس هكذا، أريد أن.. ولا هذه أيضًا.. أيها الإله اثنان، أنا أنتظر أن تزيل الأمل من السجن.. أظن هذه صيغةٌ مناسبةٌ ولا آثام بها.

رائحته! أقسمُ أنها هي، كنتُ أعرفها ولم تغادر أنفي بعد، كانت رائحة السِكِّير هذه المرة، لقد ذهب إلى هناك مجددًا، لقد.. لقد.. اللعنة لقد أمعنتُ في النسيان جدًا هذه المرة، نعم تذكَّرت.. لقد

اشتاق، لقد اشتاق وذهب ثم عاد لسببٍ ما، ربما لأنه أحب ذلك، ربما ليموت، أو ربما لأنه ليس لديه الرغبة في الرحيل بشكلٍ يفتقدونه بعده، هذا المواطن صادقٌ بشكلٍ غريب، صادقٌ رغم أنه يستحق الإعدام ورغم كل ما به من الخَبَل وغرابة الأطوار.

هل عادَ من أجل "التي" التي عشقها بالشمِّ ووقف من أجلها الطابور الذي يراه للحمقى والمغفلين؟ أم أنه أراد أن يصلح شيئًا ما بخصوص علاقتي به؟ إبراهيم كان "شيئًا" لا تستطيع أن تخبر نفسكَ ولا العالمَ عن شيءٍ محددٍ بخصوصه، ستبدو مثل مؤخرة الدجاجة في نهاية الأمر، لا أعرف ما تكون الدجاجة ولا مؤخرتها لكنه قال لي هذا ذات يوم، أنت مثل مؤخرة الدجاجة حين تزحف وتحاول التفكير في الوطن في الوقت ذاته.. إبراهيم هو هواء مدينة العتمة الفاسد، بوابتها لحظة الفتح والاختباء، هو كل جرعاتِ الخوف الناقصة بالمضخات، وكل الإحساس الذي لا نحبه من الجوع والبرد ونخفي ذلك لنيل النقاط، هو امتناعنا عن إخفاءِ ذلك وقتله بشكلٍ تام حين خلقنا أذن الصنم، إبراهيم هو مدينة العتمة ولكن ليس هنا، هو مدينة العتمة بالعالم الجميل.

الاحتلالُ الأصفرُ جاءَ ..

فوقَ حمار ..

سرقَ طعمَ السكَّر وأعطاه رِشوةً ليوهِمنا بطعم ..

السكرُ وافق ..

أُوهِمنا ..

كوفِئَ بحلاوةٍ أبدية ..

اللصُ الأسمرُ جاء ..

فوقَ حمار..

سرق طَعْمَ الملح وأعطاه رشوةً ليُوهِمنا بطعم ..

الملح رفض ..

عوقِبَ بلذعةٍ أبدية ..
بعد مائة عامٍ من الحادثتين ..
جعلوا السكَّرَ أغنيةً وعطيةَ أطفال ..
وسَمَّيْنا به مرضًا..
بعد مائة عام من الحادثتين ..
جعلوا الملح السلعةَ الأحطّ ..
ولم نطهُ طعامًا إلا به ..
آه يا لالالي ..
آه يا لالالي ..

صدق حدسي أنه زار السِكِّير، تعجَّبتُ من أنه يترنَّمُ بصوتٍ يسمعه أفرادُ القوَّات بسهولة، لقد جاء ليُعدَم إذن، أراد ذلك وأراد استفزازهم كمهمة أخيرة له، في لحظةٍ ما وددتُ لو أحذره من ذلك، من وجودهم بالخارج، من الأمل الذي لم يغادر المكان بعد، من كل شيء من الممكن أن يبعثه للعالم الجميل، لكنهم كانوا قد سحبوا ما تبقى من كلماتٍ يمكنها أن تنقذه بتحذيرٍ أو تنقذني بتوبة، لم يأتوا، ولم أحذِّر، ولم يصمت، ولم أصحُ حتى.. جيدٌ أنني لا أحلم على كل حال، لا أحتملُ آثامًا إضافية وأنا أتعلَّقُ بالقيدِ والخطر لأنجو..

"آه يا لالالي" كانت تتردد بالسجنِ بشكلٍ مرعب، وأصواتُ أقدامِه تضربُ الأرض بصوتٍ منتظمٍ معها، كان مجنونًا جدًا وراغبًا في الفناء الفوري، هذا لا يفعله إلا كائنٌ راغبٌ جدًا في الحياة، أو راغبٌ جدًا في الموت، أو إبراهيم، إنها موسيقا الموت، الآن فهمتُ كل شيء.. هذا ما يفعلونه بكلِ خاضعٍ للإعدام، إنها لعبة وقد اختلطَ عليَّ الأمر، إنها الموسيقا القادمة من العالم الجميل، الموسيقا التي نحبها، موسيقا النعيم، كلماتُ الراحة، وترنيمات الرغبة، الحرمان الأبدي من الشقاء، إنهم قساةٌ جدًا في هذا الشأن، قساةٌ ليجعلوننا نرى كل هذا قبيل الموتِ مباشرة.. في

هذه الأثناء توقفتُ عن السجود والإنصات له، انتظرتُ إعدامي ورحلتي للعالم الجميل في هدوء، ليس ثمة فائدة من توسلاتي بعد الآن، لقد جاء وأفسد كل شيء كالعادة.

- هيا لنذهب.

سمعتها تأتيني مع اقترابِ الرائحة فلم أرد وقد انتفضتُ رعبًا..

- هيا ولا تخف.. لقد قتلتُ الحمقى بالخارج.

الآن أيقنتُ أنه هو، ابتهلتُ بداخلي للإله اثنين أن يقتلني اللحظة.. هذا حلٌ مناسبٌ ويرضي جميع الأطراف، ومازلتُ لا أستطيع النطقَ لأصرخَ فيه بالذهابِ إلى موتٍ يستحقه بعيدًا عني.

حين ابتعد قليلًا وبدأت "يا لالالي" تظهر مجددًا مع خطواتِ الأقدام كأنه لم يكن متكلمًا قبل لحظة سَكَنْت.. ثم لم أدرِ ماذا حدث.

الفصل السابع

- لو كنتَ قتيلًا لما استغرقتَ كل ذلك للإفاقة.

سمعتُها عن يميني ولم أكن مستعدًا بعد لأعيش وقتًا إضافيًا، لقد رتَّبتُ جميع الخطط للمرحلة القادمة بعد الإعدام.

- أنت الآن بأمان.. خذ هذه.

قالها وشممت رائحة لحم تقترب، كنتُ بحاجةٍ ماسة للطعام فعلًا، تناولتُه وقد سلَّمتُ بالأمر الواقع، أنا الآن بصحبته في مكانٍ ما، وأغلبُ الظنِ أننا ننتظرُ الإعدام سويًا وقد قرَّر أن يحتفل على طريقته قبل أن يغادر، أردتُ السؤال إن كانوا قد شعروا به، وإن كانوا قد أعطوه رصيدَ كلماتٍ وثلاثة قيود، وإن كانوا سيعدمونه معي أم إن استجوابه لم ينتهِ بعد، وإن كان مثلي ينتظر تدخل الصنم وإعلانه صالحًا، تذكَّرتُ أنني بلا كلمات الآن، وتذكرتُ أنه فاسدٌ بالفعل ولن ينتظر شيئًا، وتذكَّرتُ أنه لا حاجة لذلك من الأساس، كلانا سيُعدَم ويُرسَلُ للعالم الجميل، ربما نلتقي هناك ويحكي لي كل شيء عمَّا حدث ولا أذكره، لا أعلم إن كان بالعالم الجميل رصيدٌ كلماتٍ أم لا.. لننتظر ونرى.

- تستطيع الحديث.

قالها ولم أفهم.. ولم أهتم، هو غريبٌ ولستُ قادرًا اللحظةَ على بذل أي مجهود في فهمه.

- انطق.. تستطيع الحديث أيها التافه.

هو يقصدني بها إذًا ويعني تمامًا ما يقوله، بدا واثقًا بشكلٍ مرعبٍ في هذا.

حاولتُ فتحَ فمي وتحسُّس مدخله فوجدت الأمر ليس صعبًا بشكلٍ كبير، لساني حين أمسكتُه وأخرجته من فمي كان مطيعًا بالشكلِ ذاته، حاولتُ النطق..

- مت..

قِيلَت.

- متى سينفذون الإعدام؟

- لن ينفذوا شيئًا.

لساني كان يؤلمني جدًا وإحساس أن فمي بشكلٍ عامٍ بات أكبر من حجمه الطبيعي كان مزعجًا لدرجةٍ تمنيتُ معها.. أقصد تضرعتُ للإله اثنين.. أن يسكتني للأبد، لكنني تحاملتُ على نفسي بعدما استغربتُ ردَّه.

- عفا عنّا الإله اثنان؟ أم أظهر صنم الطاعةِ كل شيء؟

- بل وضع مكافأة قدرها مائتي نقطة عتمية ومكانًا خاصًا بالعالم القميء لمن يدل علينا.

قالها وسمعتُ صوتَ المضغ فالتفتُّ إليه منتفضًا ولا أراه، استغربتُ خفة حركتي في البداية، تحسَّستُ رقبتي فلم أجد قيدًا، علمتُ أنه ارتكبَ كارثةً جديدة ودفعني إليها دفعًا، خشيتُ السؤال فقال بعد انتهاء مضغِه:

- قتلتُ فردَي القوات بعدما أفقدتُكَ وعيَك وحللتُ قيدَك، ثم حملتُك إلى هنا.. خذ هذا الجزءَ من القلب، هذا الزائرُ كان سجينًا مثلك، أستطيع استنتاج ذلك بسهولة، قلبه حلو المذاق وكثير الدم، سيُشعِرُكَ بحنينٍ ما، ورغبةٍ ما، وبعض شعورٍ بالذنب.

قال كل ذلك يقرّبُ مني قطعة لحمٍ دون أن يشعرني حتى أنه ارتكب شيئًا قد يُهلِك، سمعتُ صوت مضغِه مجددًا وراودتني رغبةٌ قويةٌ في قتله.. لولا أنهم حرموا الرغبة لفعلت.

- هل تُدركُ ما تقوله؟ لقد قتلتنا.

- وهل كانوا يعدُّون لك العشاءَ هناك؟

- توقَّف عن مخاطبتي بأشياءٍ لا أفهمها، لقد هلكنا.

سمعتُ صوتَ شيء يرتطم بالأرض أفزعني قبل أن أجدني بين يديه يمسك عنقي بقوة ويقول:

- أما زلتَ لم تفهم بعد؟ لقد كذبوك في كل شيء وصدقتُك في كل شيء، إن نطقت الكلمة الواحدة والعشرين ستموت.. وأنطقتها لك ولم تمُتْ، أنت ممنوعٌ من الكلامِ للأبد، والآن تتحدث دون أن تخرَّ قتيلًا!

قتلوا أمك وأباك وأطعموك هواءً فارغًا لا شيء به، وأطعمتُك قلوبَ المحبين والثوار والخانعين والفاقدين والسكارى والأوغاد والنبلاء، فقأوا عينيك وقيدوا أطرافك، وجعلوا شطر حياتك في السجودِ لصنمٍ صنعتَه أنت، منعوكَ الحلمَ والرغبةَ والـ"أنت" وجعلوك تُقدِّس الخطر والخوف والسكون والنسيان والـ"أنا".

وجعلتُك تتذكر أن لك أقدامًا وأن الزحف لا يليق بك.. أين أخوك ها؟ أين حزنُك على أبيك وأمك وذكرياتِك عن البيتِ القديم قبل الأسوار ها؟ أين كل شيءٍ أردتَه ولم تنله؟ على أي شيءٍ مازلتَ راغبًا فيهم؟ تريدُ أن تموت بهدوءٍ أكثر؟ هذا كل ما أصبحت تنتظرُه في حياتك؟ حسنًا اذهب إليهم، الطريقُ إلى هناك ليس طويلًا ستسير.. عفوًا.. ستزحف.. ستزحف ثلاثمائة زحفةً يمينًا ثم تهبطُ درجًا من خمسين ثم سبعين زحفةً يسارًا فسبعين أخرى للأمام.. ستجدهم هناك، سلِّمهم نفسك وأخبرهم عني، عن إبراهيم الذي جعلهم مسوخًا كما فعلوا بكم، افعل كل هذا ومت بهدوء أكثر.. يا عبد.

صمت حينًا ثم قال:

-سنحيا

-لماذا؟

-لنبقى

-كهذا؟

-أحبَّ

-سنفعل.

-أشكُّ

-مغفَّل.

-أطِعْني.

-أفكِّر.

-ستنسى.

-فذكِّر.

-ستفنى

-ونعمة.

-وأحيا.

-كأعمى.

-شروطك؟

-فثوروا.

-سنهلك.

-تبوروا.

-سنسلم.

-كهذا؟

-أحبَّ

-سأفعَل.

-فتاةً؟

-جمال.

-مؤكد؟

-مُعقَّد.

-ستُكسَر.

-مُحال.

-وموتُك؟

-حياة.

-بتلكَ؟

-نجاة.

-بعَوْرة؟

-بثورة

-واهم.

-مُسالِم.

-نجَوْت.

-غَفَوْت.

-سأفعل.

-مغفل.

-مُعاقٌ.

-مُساقْ.

-وأحيا.

-كجُثة.

-وأنت؟

-كغصة.

-بحلقِك.

-ستشقى.

-بخلقِك.

-مُبشِّر.

-مُنفِّر.

-لأمنِك؟

-مؤكَّد.

-وأمني؟

-مُعَقَّد.

-ستحيا.

-وتفنى.

-وتبلى.

-بمعنى؟

-ستعلم.

-تُهدِّد؟

-بقاءك.

-أجدِّد.

-وتركَع؟

-لأرضي.

-لحاكم!

-لعِرضي.

-وداعًا.

-لماذا؟

-لحبي.

-كهذا؟

-كثورة.

-مُدَان.

-أمان.

- ستحيا طويلًا، طويلًا طويلًا، طويلًا طويلًا.. وتفنى جبان.

رقصٌ مجددًا وضوضاء، "آه يا لالالي" وافتتان بالسكِّير الذي لا أعلمه ولا أعلم معنى اسمه ولا أعلم كل هذه الكلمات التي ينقلها عنه، صوت مضغٍ وشربٍ وارتطام شيء بالأرض، الحالة ذاتها التي تجعله شيطانًا يقول "الشعر"، قال لي مرة أن هذا الكلام الذي يقوله كثيرًا ولا أفهمه يسمونه عند "الناس" شعرًا، وحين سألتُ عن "الناس" قال إنهم مواطنو "هناك" وحين سألتُ عن "هناك" قال حيث كان إبراهيم والسكِّير والنحيف الذي أخاف منه قبل أن يأتونا زوارًا.

- مازلتَ هنا؟

قالها بعد وقتٍ ليس بالقصير وكأنه قد انتبه فجأة لكوني مازلت بالجوار.

- لقد شربتُ الدمَ وأنشدتُ الشعر وأكلتُ قلبَ المحبِّ الأخير الذي جاء بالأمس، لقد فعلتُ كل هذا خصيصًا لأودِّع العالم بشكلٍ لائق، ظننتكُ ذهبت لإفشاء السر فأقمت ذلك الحفل، يؤسفني أنني فعلتُ كل ذلك هباءً.. شعورٌ قاتلٌ أن تستعد للرحيل ولا ترحل.. قاتل.

شعرتُ به يجلس إلى جواري، استنشق شيئًا ما وقد سمعتُ صوتَ أنفاسِه ثم قال:

- إنه الهواء فقط.. لا مضخات هنا في قصر الملك.

قتلتني كلمته الأخيرة أكثر من رؤيتي للنور.

- قـ..قصر الملك؟

- نعم، نحن في قصر الملك، إنه المكان الوحيد الذي لن يبحث عنا أحد فيه.

- هل تـ..

- كلمةٌ أخرى وسأعدمكُ حالًا وأريحك وأريح نفسي، لقد سئمتُ منك، لقد قتلتُ كثيرًا منهم ولن يضيرني لو أضفت آخرَ للقائمة.

سكنت..

- سأغادر هذه المدينة، إنهم يكرهونني جدًا وأنا مسكينٌ ووحيد، تصوَّر يا حسن أن فردَي القوات اللذين قتلتهما قالا لي أنني الشيطان الذي يقذفُ الدم في أجساد العصاة وأقتل العتمة، لقد كانا يقولانها وأنا أشنقهما يا حسن، كانا ضعيفين وبائسَين جدًا وقتلتهما وأنا أبكي، أنا طيبٌ يا حسن وأحمل قلبًا يحب.. أليس كذلك؟

قال ذلك وبكى، سمعت صوتَ الأشياء التي تنزل من العينين مجددًا، وجدتني أقتربُ منه وأتحسس رأسه وأقول:

- أنت صفرٌ صالح يا إبراهيم، أنا آسف.

- صفر؟ أتعلم ما أسوأ شيءٍ في هذه المدينة؟ أنكم تكتفون، نعم.. من يكتفي من حقِه تقتله كفايته ولا يسير حقُه بجنازته.

- لا أفهم.

- في البداية الكل هنا مواطن، المواطن واحد والمواطن ألفان وواحد، ثم المواطن واحد ملك والمواطنون أشياء، ثم الملك إله والأشياء أصفار، سيأتي يومٌ يكون هو الإله الأوحد وأنتم التراب المنثور بالمدينة ليجعل لها طرقًا تسير عليها قواته، المثير للشفقة فعلًا أنكم لا تلحظون كل ذلك، لا أدري لماذا.

صمتنا بعض الوقت.. سألته:

- حدِّثني عن السكِّير والنحيف الذي تخاف منه وآه يا لالالي وهناك والناس والشعر وكل الذي لا أفهمه يا إبراهيم.

- كل شيءٍ يأتي مع النور، خارج هذا العالم توجد عوالم أخرى لا نعلم عنها شيئًا وأعرف بعض خبرها فقط من الزوَّار وزياراتي للبوابة حيث يأتي آخرون إليهم بكلماتٍ ويرحلون.

السكِّير جاءوا به وكان فوق جسدِه ورقةٌ بحجمٍ ضخمٍ جدًا سرقتُها ولا أعلم ما كُتِبَ فيها، حين أزور مدخل البوابة الذي دخل منه أسمع أحدًا بالخارج يلقي بشيء يسميه الشعر ويبكي، ثم يقول إن الخمر والشعرَ والأسواق تفتقده، وأن الملكَ قد أمر بطمسِ معالمه لأن قصيدتَه عن الستارِ

الذي صنعه الملك ونسَّاجوه قد مزقَّته، لم أفهم وأحببتُ السكِّير وزائر مدخله لأنه تسبَّب في إصابة حاكمٍ ما بضيقٍ ما، راق هذا لي، أما النحيف الذي أخاف منه فقد جاء في نفرٍ كثيرٍ أدخلوه وذهبوا ولم يزرهُ أحدٌ بعد هذا اليوم، مدخل بوابته أكثر ظلمةً من بيوتِ مدينتنا، حين أذهب إلى هناك أسمع كلامًا يأتي من الداخل لا من الخارج كالبقية، هو يخاطب نفسه، شيء ما تبقى منه لم تأكله مدينة العتمة ومازال عالقًا هناك عند البوابة يستغيث مرةً ويلعن مرةً ويشتهي مرةً ويغضب مرةً ويخيفني في جميعها مرات.

- والناس؟

-إنهم مخلوقاتٌ بشعةٌ جدًا خلف هذه البوابات، تخيَّل أن لديهم شيئًا يسمى أمنية ما قبل الموت، هل تصوَّرت يومًا أن ترى سفالةً أكبر من هذه؟

- وهناك؟

- إنها حيث يعيش الناس، عالمٌ فيه مواطنون وقصرٌ وملكٌ وسكارى ينشدون الشعر ويقطعون ستائره، ونحفاء يصحبهم كثيرون في البداية فقط، وحسن وإبراهيم و"التي" خاصته.

- هل النور هو ما يفعل بك وبالكائنات كل ذلك؟

- المعرفة.. المعرفة تزيدك خواءً بنفس القدر الذي تزيدك به زحامًا، تأخذ من الأسفل حيث قلبك وتضيف الضوضاء للأعلى حيث رأسٌ مسكين، هي تعلم أن الراحة تكمن في رأس فارغ وقلب ممتلئ.. لذلك تقوم بالعكس.

صمتنا حينًا ومازلتُ لم أفهم الكثير، كنت بحاجة لسماع صمته أكثر في هذه اللحظات، هو غريبٌ في الحالتين، غريبٌ ويتقمص كثيرًا دور الشيطان الذي يبث فينا الدم، حين راودتني هذه الأفكار فزعت، قررتُ أن أعود للحديث، في الحديثِ رعبٌ أقل كثيرًا من الصمت:

- هل.. هل رأيتَ الإله اثنين؟

- ليس بعد، هو في مكانٍ ما هنا بالتأكيد، لكنني لا أعلمه، أكثر من رأيتهما كانا المواطن ثلاثة والمواطن أربعة، وحجرةٌ في أعلى القصر يمنعان الجميع من دخولها ويدخلانها هما فقط،

يقولان أن الإله اثنين مقيمٌ بها وأنهما مع كل دقة جرسٍ يدخلان لاستماع التعليمات الجديدة وتبليغها للشعب.. سأراه ذات يومٍ وأقتله على أية حال.

أفزعتني الكلمة..

- تقتله؟

- نعم، وأقتل المواطن ثلاثة وأربعة وأقيم بهذا القصر كمواطنه واحد وأجعلك المواطن اثنين الذي لا يعلم عنه أحدٌ شيئًا.. نحن أحق بهذا.

لقد عاد الشيطان إليه..

أنا ابني.. أنا أحبُ أن أراني أنتقم لي..

أنا أبي.. أنا أحب أن أراني أحوز مجدًا أمام أصدقائي..

أنا أمي.. أنا أحب أن أراني لا أغادر..

أنا جدتي.. أنا أحب أن أراني لا أملُّ سرد الذكريات المملة..

أنا أختي.. أنا أحب أن أراني وسيمًا أمام الصديقات..

أنا معلمي.. أنا أحب أن أراني أكتب أكثر وأهديني إصداري الأول لأنني من اكتشفني..

أنا طبيبي.. أنا أحب أن أراني لا أتأخر بدواء السكري كي لا أموت ويُقالَ طبيبٌ فاشل..

أنا حبيبتي.. أنا أحبُ أن أكتب الشعرَ فيَّ ويُتداوَل..

أنا قد عقدتُ اتفاقًا مع نصفي العالم.. سيتكفَّل النصف الشرقي برعاية شطر عمري الأول، سيكون جيدًا أن أبدأ حياتي بالشمس، بالمنبه، بالحليب والقهوة وبوقِ الحافلة ودفتر الحضور، سيكون جيدًا أن أبدأ بالبداية.. النصف الغربي اقترح أن يتولى الشطر الأول، سيكون تفردًا إن انتهيتُ بالشمس والمنبه وأسير وحدي عكس العالم وأتجنب الزحام وأبدو مجنونًا لا يُلام، أحببتُ ذلك وبدأنا التنفيذ، وحين انتهى شطرُ الغروب وجاء دور شمس الشرق.. بدأت علامات الساعة..

آه يا لالالي..

آه يا لالالي..

الفصل الثامن

مائة دقة جرس مرَّت على إقامتنا بالقصر، كان غريبًا أننا لم نمت كل هذا الوقت ولم يكشف صنم العتمة عن مكاننا للقوات، أظنه أعطانا فرصة أخرى للتوبة، هو بالتأكيد يحبني بشكلٍ خاص لأنه تغاضى كثيرًا عن أخطاء سابقة لي ومازال يفعل، إنه حتى أعطاني رصيدًا مفتوحًا من الكلمات لإقناع إبراهيم بهذا، خِفتُ من مصارحته بهذا كله، وكنت أسجدُ سرًا في المرات التي يغيب فيها عني لزياراته للبوابة أو جلبِ القلوبِ للطعام والدم للشراب والشعر لمزاجه وليظل بخير.. قال هذا لي مرةً ولم أفهم.

- يا الله.. ارزقني حرارةً في جانبي الأيمن تعادل كل هذا البرودة في الجانب الآخر يا الله، حرارةٌ شديدة يا الله .. حرارةٌ شديدة.

قالها بغرابة أطواره المعتادة فسألت..

- من الله؟

- إنه الإله الوحيد في هذا العالم، وهو من خلق النهار والتي.

- وما.. وما النهار؟

- هذا النور الذي يأتي من البوابات ولم يجعلوكم تحبونه قط.

- وما التي؟

- تشبه النهار.

- لا أفهم.

- إنها حبيبتي هنا يا حسن، المواطنة التي أجبرتني على حضور كل هذا الكم السخيف والمقزز من الطوابير والاستنشاقات فقط لأراها بينكم، رغم كل هذا الذي تراه من قوتي وعدم عبئي بشيء يحدث أو لا يحدث إلا أنني كنت أضعف ما يكون حين أكون أمامها.

إن رأيتَ أحدَهم يملأ الدنيا ضجيجًا دون سببٍ واضح، يتمنى أن يستفزه أحدٌ أو حتى لا يفعل ليبدأ شجارًا يثبت فيه أنه قادرٌ على الفوزِ بشيءٍ ما، لا يهمه أن يرتكب الحماقات أو يصارعَ من

يفوقه قوةً وقدرةً بمرات ربما ألف، يكثر السباب لكل من يراهم أشباهًا لا أصولًا مثله، ويحنق عليهم لأنهم ينالون ما لم ينلهُ رغم ذلك، إن رأيت كل ذلك في أحدهم يا حسن فاعلم أنه عاشقٌ مخذول، لا شك أنك رأيتني كل ذلك، أتعلم أنني لم أخاطبها يومًا؟ ههه شيء مضحكٌ وبائس في الوقتِ ذاته.

- أين هي الآن؟

- بينهم وتسجد وترتدي قيدًا، لا أعرف لها رقمًا ولا اسمًا، سميتها "التي" تيمنًا بصاحبة إبراهيم الأصلي الذي لم ينلها وينقل إليه حسن عبر البوابة الأخبار عن عدم عبئها بشيء، مازلتُ أرمي قطع اللحمِ في بيتها من خلف السور كل يوم، أشعر أنها ستراني يومًا أثناء تسلقي سورها، أتمنى ألا تخبر القوات حينها، ليس خوفًا منهم، بل خوفًا من برودة الجانب الأيسر ألا تكفي الحرارة التي طلبتها من الله في معادلتها حينها.

صمت حينًا ثم قال كأنه تذكَّرَ شيئًا ما:

- إذا أحببتَ يومًا فلا ترضَ بجزءٍ من محبوبك يا حسن، إما كله أو لا شيء منه، من يهن في الحب والحرب يسهل الهوان عليه.. يسهل الهوان عليه.

سكت طويلًا.. طويلًا طويلًا وسمعتُ صوت الأشياء التي تنزل من العينين، إبراهيم لم يكن يومًا بهذا الضعف الذي رأيته هذا اليوم، كان به شيء ما أخبرني سابقًا أنه يُسمى الفقد.

"الفقد مثلنا يا حسن، الفقد ليس شيئًا شريرًا وإن بدا كذلك، نحتاج فقط أن نرى بداخله لنكتشف أنه يضم نورًا ما، ربما.. ذكرى من رحل" .

- لقد أعدمونا.

قالها لي فجأة وضحك ثم استمر بالمضغ وكأنه لم يكن هذا الضعيف الفاقد قبل قليل، لم تعد غرابة أطواره تتسبب في إثارة استغرابي بأي شكلٍ على كل حال.. قلت:

- لا أفهم.

- أتعلم لماذا لن تعاني كثيرًا في حياتك يا حسن، لأجل هاتين الكلمتين.. لا أفهم.. إنهما جميلتان جدًا وتحلان الكثير من المشاكل، لا بأس أن تعيش أحمق بعض الشيء، كونُك تنام جيدًا كافٍ جدًا لتعويض ذلك.

- لا أفهم.

ضحك كثيرًا بعدما قلتها حتى سمعت صوتَ سكبِ الدمِ على الأرض ثم قال:

- أرأيت؟

- لا أفهم "لقد أعدمونا" تلك.

- رأيتهم يعدمون صِفرَيْن ويزعمون أنهما نحن.. المواطن ثلاثة أعلن للجميع أنهم نجحوا في القبض علينا وأخبرهم صنم العتمة بمكاننا بعدما سمع أفكارنا عن الهرب.

تحسستُ رقبتي لا إراديًا، ثم قلت:

- هل.. هل أنت متأكد أن هذين الصِفرَيْن ليسا أنا وأنت؟

-هل جُننت أم ماذا؟ نحن نتحدث الآن ونحن أحياء لم يصبنا شيء.

- ربـ .. ربما نحن الآن بالعالم الجميل مثلًا.

- لهذه الدرجة تصدقهم وتكفر بذاتك؟ ماذا فعلوا بكم بحق الجحيم ليجعلوكم بهذه السخافة وهذه البلاهة وهذا القبح؟ أنت قبيحٌ يا حسن أتعلم ذلك؟.. أنت قبيح.

خِفت منه ولم أقل "لا أفهم" رغم أني كنتُ أحتاجها جدًا حينها، كان غضبًان حقًا ولم أحاول أن أغضبه أكثر فيقتلني مرة أخرى..أ.. أقصد يقتلني.

- وما.. وما حاجتهم لذلك؟

قلتُها أخيرًا بعد دقائق من الصمت بعدما شعرتُ بهدوءه بعض الشيء.

- لأنهم لابد أن يفعلوا ذلك، لم يكن منطقيًا أن يفلتَ فاسدٌ من عقاب الإله اثنين وصنم الطاعة، لو طال هروبنا أكثر لعمَّت الفوضى، كان لابد من ذبحنا بأفظع طريقةٍ ممكنة، لقد سجد الجميع

للصنم بعد إعدام شبيهينا وسمعتُ ارتجاف قلوبهم يكاد يخلعها لتسجد معهم، وتركتهم ومازالوا ساجدين، لقد نجحت القوات تمامًا في إخماد الفوضى التي سببها تمردنا.. أو هكذا يظنون.

- ماذا تقصد بهكذا يظنون؟

- ستعلم لاحقًا.

سكت قليلًا ثم قال:

- خذ هذه.. هذا قلبٌ يابس ألفِ الفقد.

- لا أهتم بصاحب القلبِ ولا بمن فقد.. أحتاج للطعامِ فقط الآن.

سمعت ضحكةً صغيرةً ثم قال:

- ستعيش طويلًا.. ستعيشُ طويلًا وتنسى كل شيءٍ في الهِرم.

ثم ذهب لرقصاته وبدأت "آه يا لالالي" قبل أن يقول من بينها "عِدني أن تظل صديقي للغد" .. واستكمل الرقص.

إبراهيم كان يجعلني أحضر مراسم قدوم الزوار للقصر، يقودني لمكانٍ يرى به كل شيء منذ قدوم الزائر محمولًا من عند البوابة وحتى حمل ما يتبقى منه للشعب، إنهم يقطعون الرأس ويذهبون به لحجرة الإله اثنين، ثم يقطعون الذراعين ويذهبون به لحجرة الإله اثنين، ثم يقطعون القدمين ويذهبون بها لحجرة الإله اثنين، ثم البطن ولحجرة الإله اثنين، وحين لا يتبقى من الجسد إلا أصابعه وبعض دهنه يذهبون به للمواطنين.. أقصد الأصفار.

رائحة الدم تنقل الفساد، لا تستنشق دمًا مراقًا فتلحق بصاحبه للإعدام، حين أعدموا شبيهينا ألحقوا بهما عشر مواطنين استنشقوا الدم رغمًا عنهم أثناء إزالة آثاره بالزحف فوقه كما العادة، حرَّموا الشم إلا باستنشاقات المضخات، لا تستنشق طعامًا يأتي مع الزائرين، ولا أوراقًا تطرحها أشجار الوهم، ولا حتى ذكرى لم تعد هنا.. للذكريات روائح لذلك دمجوا الشم بالنسيان.. المواطن أربعة قال ذلك.

بعد تحريم الشم حرَّموا التذوق وقالوا أنه مقرونٌ به ويفتح الباب للشيطان لحشونا.. أقصد لحشوهم بالشم، حين أصبح ذلك معتادًا وأصبح أصفار مدينة العتمة لا شم لهم ولا تذوق أخبرني إبراهيم أن ما يخرج للشعب من الزوار بات الأظافر والشعر فقط.. الفتات أصبح طعام مدينة العتمة الوحيد، لا أحد يجرؤ على الجهر بأنه غير راضٍ عما يقدم له، لأن هذا يعني أنه تذوَّق أو تشمَّم، وهذا بالتبعية يعني أن الشيطان وجد مدخلًا إليه، وهذا يعني أنه قد قذف به ماءه ودمه بدلًا عن العتمة، وهذا يعني أنه فاسد، وهذا يعني.. إعدامًا على الفور.

الأمور تزداد بشاعة، إن استمر الوضع هكذا ستهلك المدينة إلا من القوات، ثم ستهلك القوات ولن يبقى في عالمنا كله إلا هذا القصر، إنهم الآن ثلاثمائة وخمسون فردًا للقوات مقابل مائة صفر، مضى وقتٌ ليس بالقليل لم يُعدَم فيه أحد، ولم يتناسل فيه أحد.

ظن الجميع أن الأمور باتت أكثر استقرارًا وأن كل ما مضى كان شيئًا استثنائيًا لتعبر مدينة العتمة خطرًا ما بسلام، لم يفهم الجميع حينئذ ما تكون طبيعة "الخطر" أهو شيء نحتاجه أم شيء يهدد المدينة؟ لم يجرؤ أحدٌ على السؤال والمقصلةُ واقفةٌ بجوار الصنم، لم يعد "الخطر" مفهومًا ولم يعد هناك أحدٌ يسأل، كل ما هناك أن مرحلة التهديد قد مرَّت وأن الجيد في الأمر أن مائة دقة جرس قد مرَّت دون إعدام صفرٍ واحد.

صحيحٌ أن هذا أضاف قيدًا إضافيًا لكلٍ منهم، وصحيحٌ أن هذا جعلهم أكَّالين للشَعر والأظافر، وصحيحٌ أن هذا جعلهم يبذلون مجهودًا خارقًا لحصد الوهم وعدم حيازة شيءٍ منه هذا العام لأن المدينة تمر بـ"خطر" وصحيحٌ أن السجداتِ باتت أكثر مما يُطاق، وصحيحٌ أن الأحجار التي تربط القيود في البيوت باتت تشغل مساحاتٍ تصعب معها الحركة وتُجبر أصحابها على النوم في أماكنهم بمجرد دخول البيوت، إلا أن كَون الأصفار مازالوا على قيد الحياة يجُبُّ كل ما قبله، هذا هو المطلوب فقط.. أن تبقى حيًا.. هذا كافٍ جدًا ليشعر أهل مدينة العتمة أنهم صالحون وأن

العالم القميء ليس بعيدًا جدًا.. وهم في سبيل ذلك مستعدون لتحمل كل شيء يدفع العتمة للسير فيهم بدلًا عن الدم.

مدينة العتمة تواجه الفناء، لابد من التناسل السريع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، النسل القادم لابد أن يكون أكثر صلاحًا من شعب الأصفار الفاسد الذي ضيَّع جميع الفرص.

المواطن أربعة قال إن إناث مدينة العتمة أمام مهمة مقدسة لإنجاب الشعب الجديد الذي يُعوَّلُ عليه السير بالمدينة للعالم القميء بشكلٍ سوي، وضمانًا لنقاء هذا النسل وصلاحه الذي لا فساد فيه، فقد أوكل الإله اثنان والإله الرحيم وصنم العتمة مهمة الإنجاب الجديد هذه للمواطن ثلاثة والمواطن أربعة ليستولدوا نساء المدينة باعتبارهما المواطنَيْن الأكثر صلاحًا بين الجميع وهما الأنسب بزرع نطفهما بأرحام إناث المدينة.

على جميع الذكور أن تغادر إلى البيوت عقب طابور استنشاق الغد وتنتظر النساء ليتم تقسيمهن إلى مجموعاتٍ يدخلنَ على المواطن ثلاثة والمواطن أربعة بالتناوب لضمان ميلاد نسلٍ يجمع صلاحهما في رحمٍ واحد، حين تم إعلان ذلك تم إعدام عشرةِ أصفار ذكور وخمسة إناث سمع صنم العتمة اعتراضهم وإن لم يبدوه، بعد دقة الجرس التالية تم تنفيذ الأمر ورأى إبراهيم من مخبأه وقوف طابور الإناث أمام حجرة الإله اثنين، رُبطَت عيونهم رغم فقأها زيادةً في التسليم، وكان المواطنان ثلاثة وأربعة قد سبقا إلى الحجرة للاستعداد، كان غريبًا أن يتم أمرٌ كهذا في حجرة الإله، ربما سيشهد الإله كل شيء ليبارك النسل الجديد ويضمن نقاءه من أي دمٍ قد يسري به.

إبراهيم قال إن شيئًا ما غير مفهوم يتم، وطوال سبعةِ دقاتٍ جرس وسبعة طوابير للاستنشاق شارك بها الذكور قط ولم تشارك بها الإناث الواقفات أمام حجرة الإله اثنين بانتظار أدوارهن للإستيلاد.. كان قد تم الأمر كله ووطأ المواطنُ ثلاثة والمواطن أربعة جميعَ إناث مدينة العتمة، وهذا من رحمة الإله اثنين.. فسجدنَ له وسجد ذكورهن واجتهد الجميع في النسيانِ بعد ذلك

وضاعف لهم صنم الطاعة نقاط النسيان في هذه المرة بشكلٍ استثنائي كما أعلن المواطن أربعة لاحقًا.

حين مر على ذلك ما يكفي لظهور الإنتاج الجديد بدأت مدينة العتمة تحتفل بما هو قادمٌ لها من خير، أمر صنم العتمة بتوكيلٍ من الإله اثنين أن يتم إعلاء الأسوار حول كل بيتٍ بمقدار الضعف، تم تخصيص مساحةٍ إضافية لزراعة الوهم واقتطاع تلك المساحة من البيوت، القيود زاد عددها لخمسةٍ وتم زيادة نقاط الجوع والنسيان والسكون والخطر بشكلٍ خاص، الأصفار القديمة استغنت عن نصيبها في زائرَين متتالين لصالح تزويد المضخات بجرعاتٍ إضافية من كل شيء لملء أجساد الصغار بما ينبتها نباتًا عتميًا سريعًا وحسنًا لا دم فيه، الكل ضحَّى بشكلٍ استثنائي في هذه الأيام من أجل العالم القميء وغاية الوصول إليه، وفي سبيل ذلك تكررت طوابير من لم تُنجب من الإناث أمام حجرة الإله اثنين لتنالهن بركة الإلهين والصنم ونُطف الموطنِيْن الأكثر صلاحًا في المدينة.

****

لا شيء أسوأ مما يحدث إلا محاولة جعله عاديًا، ولا شيء أكثر دناءة من حياة مدينة العتمة حاليًا إلا محاولة جعل ذلك طريق نجاة وسبيلًا لحياةٍ أخرى أيًا كان شكلها.

ماذا فعل هؤلاء بحياتهم ليلاقوا كل هذا؟ ما الذي يكون أكثر بشاعةً من أن يسير المرء بقيد؟ وإنهم يسيرون بخمسة ويعتبرون هذا فضلًا ويسجدون له، ما أقبح من أن يظن المرء أن دهسَ الشرفِ هو طريقه لحياة أبديةٍ لا يعاني فيها؟ لقد انتُهِك شرف المدينةِ عن بكرةِ أبيها فقط لأنهم يريدون أن يعيشوا ساعاتٍ إضافية، ما يكون أشدَّ وقاحةً من أن تلطِّخ جدار روحٍ بريئةٍ بطلائه باللون الوحيد الذي لا يصلح أن يشارك اللون الذي وُلِد به في لوحةٍ واحدة؟

لقد فعلت الحكومة ذلك وجعلتهم خرافًا يتوهمون على الدوام أن الذئب يقبع خلف تلك البوابات ينتظر، وأنها الراعي الذي وكَّله الرب بالحماية وسمح له بشواءِ النعجة العاصية ليسد جوعه

مقابل الحماية، الذئب لم يظهر قط ولم يظهر عواؤه حتى.. والراعي لم يكف عن الجوع والشواء قط.

الحكومة قالت أن هذا حرام، هذا يعني أن هذا الـ"هذا" هو أسمى درجات الحلال، الحكومة قالت أن المدينة في خطر، هذا يعني أن المدينة في أقصى درجات أمانها منذ خُلقت، الحكومة قالت أن الوقت لا يكفي للحاق بالنجاة، هذا يعني أن هذا هو أنسب وقتٍ مرَّت به المدينة يكفيها للنجاة.. لا شك أن حكومتنا هي أقذر شيء حدث في هذه الأرض منذ ألف سنة.

يا الله، يا إلهنا الرحيم الحق، لقد فعلوا كل هذا العبث باسمك وطالبونا بالسجود، أنت بريء من هذا يا رب وإنني أحبك، أنت قادرٌ على إهلاكهم أليس كذلك؟ افعل يارب وسأكون ممتنًا جدًا، أعلم أننا لا نستحق، لكنك الله ونحن نثق بك بهذا الشأن ونجعل الأمر كله إليك، أنا أحبك يا إلهي الرحيم، لا أعلم كيف أثبت ذلك لكنني أعلم أنك تعلم أنني صادق، أريد أمي يارب، أريد أمي وأن يظل أحدهم صديقي للغد..

لم أسأله عن معنى الذئب ولا الخراف ولا الشواء ولا الحائط ولا الطلاء ولا انتهك ولا شرف ولا معنى أن يتشارك لونان في لوحةٍ واحدة.. لم يكن في حالةٍ تسمح لي بأن أقول "لا أفهم" التي تغضبه، فضَّلت الاستماع لهذيانه الذي اعتاده واعتدتُه منه، ظل صامتًا حينًا ثم قال:

- حسن.. عِدني أن تظل صديقي للغد، هذا الغد بالذات يا حسن.. هذا الغد بالذات.

الفصل التاسع

جاء الغد.. حاولتُ أن أبقى صديق إبراهيم هذا الغد بالذات كما طلب، لم أكن أعلم لماذا طلب صداقة هذا الغد بالذات مرتين، ولماذا لم ينم، ولماذا لا يمضغ ولا يترنَّم بالـ"آه يا لالالي" ولماذا ظل يردِّد " بالتأكيد هناك بدايةٌ في مكانٍ ما" كثيرًا إلى هذا الحد.

ولماذا تذكرتُ أنا كلَ شيء فجأة.. أبي، أمي، القاتل الذي حصد النقاط، أخي الصالح الذي في مكانٍ ما، البيت الكبير، زينة أمي التي لم أرها ولم أرَ من تزينت بها، العشرون كلمة وفرحة زيارة الوفد، أيام كنا ألفين مواطن، الحياةُ قبل القيد وقبل الفقء وقبل إزالة أبراج العتمة الأقل، مدينةُ العتمة لم تكن قط هذا المكان البغيض الذي أراه الآن، كانت شيئًا أكره.. أقصد أحبه، كانت شيئًا أحبه ذات يوم.. في هذه اللحظة فقط شعرتُ بالأشياء التي نزلت من عينيّ أمي وإبراهيم قد أتت إليّ.

- ما يبكيك؟

- أنا.. أنا أضحك.. إنها العتمةُ فقط ما أخفت ثغري عنك، انظر إليَّ جيدًا، ألا.. ألا ترى هذا الشق بوجهي يتَّسِعُ ويظهر بياضُه المتناسق وسوادُه بالمنتصفِ يتَّسعُ حتى الحلق؟

- وهذا الماء الذي ينزل منه من الضحك أيضًا؟ وهل صار الثغرُ بأعلى الرأس؟ ثم أخبرني.. متى أصبح لك ثغران يضحكان بماءٍ ينزلانه في وقت واحد؟

صمتُّ أنا ولم ينطق هو، شعر أنني بحاجةٍ للصمتِ أكثر، إبراهيم كان حنونًا جدًا حين يراني أحتاج ذلك، لقد كان أكثر مجنونٍ أحببته، في الواقع كان المجنون الوحيد.

"أيها الضمير.. أنت أمين وقوي، هلا أخذت مرآتك التي تضعها أمامي على الدوام؟ إن بها خللًا ما وتُظهر كل شيءٍ على حقيقته.. أريدُ واحدةً جديدة.

أيها الخط الحدودي.. أنت شائكٌ وقوي، هلا أخذت هذا التراب الذي تحيطني به على الدوام؟ إن به خللًا ما ويشرب الدم وماء الصنبور بالكفاءةِ ذاتها.. أريدُ واحدًا جديدًا.

أيها الصندوق البريدي.. أنت مستمعٌ جيد وقوي، هلا أخذت هذا الحبر الذي تحيط به مكتبي على الدوام؟ إن به خللًا ما ولا يكتب إلا لاسمٍ واحد.. أريد واحدًا جديدًا.

أيها العالَم.. أنت كبيرٌ وقوي، هلا أخذتني مني لأنني أحيطني على الدوام؟ إن بي خللًا ما وأخاطب الجماداتِ لأنها تشعرني بالأمان أكثر ولا تملُّ الاستماع.. أريد واحدًا جديدًا."

قال ذلك بينما أبكي أنا حتى توقفت، لم أفهم كالعادة ولم أسأله عن ذلك، اعتدت أن يصمت وحده ويقول كلامًا أفهمه يخاطبني به بعد انتهائه من مخاطبة الشيطان أو السكير أو إبراهيم أو النحيف الذي يخاف منه، هو يعود لي بالنهاية وهذا ما يهم.

- سنبدأ اليوم.

- لا أفهم.

كان يضحك كلما قلت "لا أفهم" ولم أسمع ضحكه هذه المرة، قال:

- لم يعد هناك سبيلٌ للمشاهدة من خلف الجدار والمراقبة من المخبأ، لقد أسدوا لنا خدمة العمر بهذا النسل الجديد.

- أفصح أكثر.

- هذه فرصتنا لإصلاح كل هذا العبث.

- كيف؟

- سأعلمك كل شيء.. لكن عِدني أولًا.

- سأظل صديقك للغد.

- لا

- ماذا إذن؟

- عِدني أن تكون صديقي اليوم.

أفزعتني كلمته وإن لم تكن نبرتها قد تغيرت عن سابق الحديث، لكن شيئًا ما بها فعل ذلك.

- أعـ .. أعدك.

- هيا بنا.

- ماذا سنفعل بالضبط؟

- سنسرق كل ما يمكننا سرقته من الزائر الأخير، سننثر لحمه في كل البيوت ونغرق الطرقات بدمه، لابد أن يفوح الدم في مدينة العتمة ويطغى على شمس عتمتها بكل الطرق، لابد أن تصبح مدينة الدم وماء الشيطان الذي حذروكم منه، الجميع سيستنشقه بدلًا عن المضخات وخاصة الصغار المواليد، لابد أن يختلط بتكوينهم اختلاطًا لا يغيرهم بعده، على الجميع أن يأكل ويشرب ليفرغ مساحةً للرأس بالأعلى لفعل شيءٍ ما، لقد أفرغوا المِعداتِ ليجعلوها الباحث الأول، إن منحنا لقب "الأول" هذا للرأس سيتغير كل شيء، على الجميع أن يأكل، فهمت؟.. إن فعلوا ذلك قامت الثورة.

- **الثورة؟** ما الثورة؟

- إنها شيءٌ شاركَ "التي" في قتل إبراهيم.

- لا أفهم.

- لابد أن يطعم الجميع من طعام الملك يا حسن، هؤلاء القوم سيفيقون فقط حين يعلمون أن الصبرَ على الجوع ليس بطولة ولا تقربًا لإله.

- هل تدرك صعوبة ما تنويه يا إبراهيم؟

- تمام الإدراك.. وتذكَّر أنك وعدتني أنك ستظل صديقي اليوم.

صمتُّ..

- إنهم مساكين جدًا يا حسن، إنهم لا يملكون مكانًا يلجأون إليه ويبكون، هل تدرك حجم مأساة كتلك؟ مدينة العتمة لم تقدم لهم ذلك، ليس أسوأ من أن يريد المرء البكاء ولا يستطيع، أو القتال ولا يستطيع، أو الحب ولا يستطيع، أو الضعف ولا يستطيع، أو الضعف يا حسن.. هل سمعتني؟ أو الضعف.. الوطن الذي يجعلك لا تستطيع على الدوام هو وطنٌ سافل، سكان العتمة لم يستطيعوا شيئًا من هذا.. هم لم يعيشوا أصلًا.

إبراهيم كان صادقًا هذا اليوم، أقصد هذا النهار.. طالبني أن أسميه نهارًا.. كان صادقًا جدًا وغاضبًا جدًا وراغبًا في شيء ما، والراغبون فعَّالون إن إرادوا.. قال لي ذلك أيضًا.

- سندخل حجرة الإله اثنين ونسرق اللحم من هناك.

- ماذا؟ هل جُنِنْت؟

- لم يعد هناك وقتٌ لأسرقَ الفتات حين يأتون بالزائر، تلزمنا جرأة أكثر، الراغبون فعَّالون إن أرادوا كما أخبرتك، ارغب مرة واحدة فقط من أجلي.

- سنموت لا محالة يا إبراهيم، هذا ليس حلًا.

- هل ينتظر الشعب منا شيئًا؟

- لا.

- هل تنتظر الحكومة منا شيئًا؟

- ممم.. أظن لا.

- هل ننتظر من أنفسنا شيئًا؟

- بالتأكيد لا.

- سننجح إذن.. أنت حين لا تُنتَظر تصل أسرع، أو تصل على أقل تقدير.. هذا مُرضٍ ولو بشكلٍ مؤقت.

- نحن غير مستعدون لمثل هذا بأي شكل.

- الرغبة أهم من الاستعداد حين تنوي ارتكاب الحماقات.

- هذا لا يعني أن نموت.

- وما المشكلة؟ لقد كنت تنتظر الموت فترة لا بأس بها وأقصى طموحك أن يتم ذلك بألمٍ أقل.

صمتُّ..

- لا تخف.. لا تخف مرةً واحدة فقط وسيقودك النور إلى هناك.

- أي هناك؟ حيث يعيش "الناس" ويعيش "الشعر" ويعيش كل هؤلاء المجانين الذين ألبسوك الشيطان وجعلوه يقذف فيك ماءه؟

- بل حيث ستعيش أنت، أو على الأقل.. البقية الصالحة منك، أنت ميتٌ يا حسن، أنت ميت وهم ميتون شعبًا وحكومة، أنا فقط الحي هنا على هذه الأرض، وأنا الوحيد الذي يظل كذلك، أنتم تحبون الحياة فمنعها الله عنكم، وأنا أحب الله فوهبني الحياة، هذا هو الفارق.. سأقوم بالأمر وحدي، ولتنعم أنت في قيدك وموتك.

كان هذا كافيًا بعض الشيء لأفكر بالأمر، أفكر.. حسنًا هذا خرقٌ آخر لتعاليم الإلهين، لا بأس، لن يضيف هذا كثيرًا لمأساة من الاختراقات موجودة بالفعل.

قال إنه سيدخل الحجرة حين يخلد الجميع للنوم ولم ينطق بعدها، رائحته كانت إلى جواري طوال الوقت، هذا يعني أن "حين يخلد الجميع للنوم" لم تأتِ بعد، حركةٌ إلى جواري، ثم وقع خطوات ضعيف، ثم "آه يا لالالي" أقوى من كل الـ"آه يا لالالي" التي سبقتها وكلامٌ لم أتبينه، كان يستقوي بكل شيء فيه في هذه اللحظات، كان يفتش داخله عن كل شيء بإمكانه أن يقول له "أنا معك في حجرة الإله ولن أخاف مرةً واحدةً من أجلك وسنموت معًا بطريقةٍ ما" ، ثم الحركة تبتعد، ثم شعرتُ أنني بحاجة أن تعيش البقية الصالحة مني على الأقل.. ثم استوقفتُه.

لا أحد بالقصر، لا حاجة للقصر وإلهه والمواطنَيْن ثلاثة وأربعة بوجود قواتٍ أو حرس، ذرة تراب من الموجودة بالخارج فوق رؤوسنا حتى لا تجرؤ على دخول قصر الإله اثنين دون أن يعلم، لا أدركُ حقيقةً كيف دخلنا نحن إلى هنا، ربما سماحة الصنم.. أظن ذلك.

سِرنا على مهلٍ دون إحداث ضجيج، كان يقودني حتى قال "وصلنا" .. فتح الباب وقال "اتبعني" ثم حين دخلنا لفح عينيَّ المفقوءتين طيفٌ أبيض كاد يقتلني.

- ما.. ما هذا؟

لم يرد.

- إبراهيم!

- إنه.. إنه النور.. المكانُ مُضاءٌ بالكامل.

- هذا يعني أننا مرئيان الآن بشكلٍ واضح.

لم يرد..

- إبراهيم هل أنت هنا؟

- ها؟.. نعم نعم.

- أقول أننا الآن مرئيان بشكلٍ واضح.

- بل أكثر من واضح.

- والعمل؟

- اتبعني.

سرتُ وراءه كثيرًا في هذا اليوم، شعرتُ أننا ربما خرجنا من القصر وليس فقط من الحجرة، غير أن وجود النور الذي يوشك أن يقتلني كان يخبرني على الدوام أننا مازلنا هنا ننتظر شيئًا ما يبعثنا للإعدام بشكلٍ أسرع.

- هذه الحجرة تعادل مساحة بقية القصر على أقل تقدير.

قالها لي فقلت:

- أستطيع أن أستنتج ذلك.

- لكن ألا تلاحظ شيئًا غريبًا؟

- ماذا؟

- لم نسمع صوتًا ولم نهلك حتى اللحظة رغم دخولنا حرم مدينة العتمة المقدس الذي لم تطأه أقدامٌ قبلنا.. نحن حتى لم نسمع كلمةً واحدةً ولم نرَ شيئًا واحدًا يدل على وجود الإله اثنين بالمكان.

- المكان واسعٌ كما ترى، ربما لم يرَنا.

- إله لا يرى عبادَه؟

قالها وضحك ثم لم يعلِّق.. ووصلنا لرائحة اللحم.

الفصل العاشر

النور كله، الدفء كله، الشبع كله، الارتواء كله، الأمان كله.. الكفر كله كان بحجرة الإله اثنين، بالتأكيد حبس كل هذا الأذى عنده كي يحمي المدينة وأصفارها، فكرتُ بهذا وخفت أن أبوح به لإبراهيم.

اللحم الموجود كان أكثر من كونه لزائر واحد، بل ربما أكثر من عشرين زائرًا، إبراهيم قال ذلك قبل أن يطالبني بالإسراع لأن البرودة المحيطة باللحم توشك أن تقتلنا، ماذا يوضع بالمضخات إذن إن كان اللحم كله هنا؟ فكرتُ بهذا وخفتُ أن أبوح به لإبراهيم.

صنم العتمة بإمكانه أن يسمع أفكارنا، الإله اثنان هو رب صنم العتمة، إذن الإله اثنان بإمكانه أن يسمع كل ما نقوله أو لم نقلْه، كيف لم يرَنا نحن بمملكته الخاصة؟ فكّرتُ بهذا وخفتُ أن أبوح به لإبراهيم.

حملنا كل ما يمكننا حمله ثم ربط إبراهيم بعض اللحم بحبلٍ ربطه بعنقي وفعل بنفسه بالمثل، سحبنا اللحم حنى القبو الذي نختبئ به وكررنا هذا أكثر من عشرِ مراتٍ طوال هذه الليلة، قال إن اسمها "ليلة" وهي شيء عند "الناس" يحب الذكريات والتذكير بالحماقات وقتل العشاَّق وخائبي الرجاء والفاقدين والمهاجرين لأراضٍ أخرى، "ليلة" تعني شيئًا بائسًا وهي عكس "نهار" .

- لم يبقَ الكثير، ربما مرةٌ أخرى أو مرتين.

قالها إبراهيم وهو يعلِّق برقبتي بعضًا من اللحم قبل أن نفاجَأ بصوت الباب يُفتَح.

ضربني إبراهيم ضربةً أجبرتني على الانبطاح ثم سحبني بسرعةٍ لم أعهدها في أحدٍ قط، اختبأنا خلف أحد الأعمدة بزاويةٍ غير مرئيةٍ من الحجرةِ القصر، كانا المواطنين ثلاثة وأربعة، سمعتُ وقعَ أقدامٍ وهذا يعني أنهما لا يزحفان، وقع الأقدام يقترب وإبراهيم يضع يده فوق فمي وأنفي.

- ما هذا؟

قالها المواطن ثلاثة ناظرًا لمخزن اللحم فانتبه المواطن أربعة قبل أن يُصعَق صارخًا يقول:

- أين.. أين اللحم؟

- هل تسألني أنا؟

قبل أن يتوجه إليه ويمسكه من رقبته قائلًا:

- أين وضعتَه؟

- هل أصابك الجنون أم ماذا؟ نحن لا نفترق ثانية واحدة.

- وما يدريني أنك لم توصِ أحدًا من القوات بذلك؟

- ومن غيرنا في هذا العالم يجرؤ على الاقتراب من محيط الحجرةِ حتى ولو اجتمعنا على إقناعه بذلك؟

فكَّ المواطن ثلاثة يديه عن عنق رفيقه قبل أن ينظر مجددًا للحم يقول:

- اللعنة.. أين ذهب إذن؟ هل.. هل أكله الإله اثنان أم ماذا؟

دوَّت ضحكةُ المواطن أربعة ثم قال:

- يبدو أن غياب اللحم قد أفقدك عقلك.

- هل تدركُ ما نحن فيه؟ لقد سُرقَ مخزون اللحم من حجرة الإله اثنين الذي يخرون له سُجَّدًا بمجرد ذكر اسمه، أحدهم تجرَّأ وفعل ذلك، هذا يعني انهيارًا لامبراطوريتنا وامبراطورية آبائنا وأجدادنا الذين أورثونا السر وأوصلوه إلى هنا، تأخذ الأمر بمحمل الهزل بعد هذا كله؟ هل جننت؟

سادت دقائق من الصمت وكأن المواطن أربعة قد أدرك أخيرًا حجم الكارثة قبل أن يقول المواطن ثلاثة:

- هل أنت واثقٌ أن هذين المتمردين قد ماتا أو غادرا المدينة على أقل تقدير؟

- ما أعلمه أنهما غير موجودان في أي شبرٍ فيها، لقد أمرت القوات بمسحها تمامًا أكثر من مرة.

- لابد من جمع كل السُكَّان والتأكد من عددهم، كذلك القوات وأعدادهم، اختر عشرةً تثق فيهم ومُرْهُم ألا يتركوا ركنًا في المدينة دون أن يبحثوا فيه عن قطعةِ لحمٍ أو حتى رائحته، وبعد انتهائهم اجمع كل الأصفار ولا تدع صفرًا واحدًا يغادر الساحة، سأوجِّه للجميع خطابًا على لسان الإله اثنين.

- حسنًا.. حالًا.

قالها وانصرفا معًا، خرج إبراهيم من مخبئه ثم سمعتُ ضحكَه بشكلٍ لم أسمعه من قبل، ضحكٌ استمر طويلًا حتى ظننتُ أنه موته قد حان.

- الإله الرحيم، الإله اثنان، صنم العتمة.. يا للفُجَّار، لقد كانوا أذكى وأخبث من كل توقعاتي بشأنهم، هل تُدركَ مأساة أن يُدارَ وطنٌ بالوهمِ لأجيالٍ كاملة؟

صمت قليلًا ثم قال كأنه يخاطب نفسه:

- أي لعنةٍ زُرعَت بمدينتنا البِكرِ ليطأها كل هؤلاء السفلة؟

ثم قال يخاطبني:

- اتبعني.

ذهبنا للقبو وقضينا وقتًا بتقطيع اللحم لقطعٍ صغيرةٍ أغرقناها بكاسات الدمِ التي اصطحبناها من المكانِ البارد بالحجرة، أمرني باتباعه ثانيةً ونحن نحمل قطع اللحم ونربط ما لم نستطع حمله منها حول جسدينا.

مررَنا ببيوت المدينة نتسلق أسوارها ونلقي داخلها قطع اللحم ونرش الدم، كنا نسير عكس تفتيش القوات لمنع الوقوع في أيديهم والقتل الفوري، لقد بذلنا مجهودًا خرافيًا في تلك الليلة البعيدة من ليالي أواخر القصة، في ساعاتٍ قليلةٍ كانت رائحة اللحم والدم تغطي مدينة العتمة بعدما كررنا هذا عشر مرات، قبل أن يقرّر تقمص دور السكِّير على الملأ، هروَل في شوارع مدينة العتمةِ بعدما رأى الأصفار يأكلون اللحم ويشربون الدم في عجلة ورغبةٍ لم يعهدها أحد

فيهم قبل اللحظة، "أبصروا.. أبصروا لستم عميانًا، أبصروا لم يفقأوها بعد، أبصروا قبل أن تخسروها حقًا.. أبصروا"

في دقائق نشر هذا وكرَّره وسحبني واختفينا بالقبو.. كان شيطانًا بحق في هذه الليلة.

لم أرَ إبراهيم غاضبًا مثل هذا اليوم قط حتى آخر يومٍ رأيته به، رغم كل ما مضى من الزمن على هذه الليلة السحيقة من تاريخ مدينة العتمة إلا أنني لازلتُ ذاكرًا كلَ شيء، أذكر أنه بدأ ببيتِ "التي" وانتهى به، البيت الوحيد الذي ألقى به قطعتين من اللحم وأربعة كاساتٍ من الدم وظل فوق سوره ينتظر أن تخرج ليخبرها أنه لم يبقَ هنا بعد كل هذا إلا لأجلها، كان صادقًا جدًا هذه المرة ولم يلتفت لتحذيراتي باقتراب القوات في تفتيشهم منا، حين غادرنا ولم تخرج أخبرني أن مدينة العتمةِ ستهلك اليومَ للأبد وبكى، ثم حين عدنا للقبو بعد ندائه ننتظرُ ما سيحدث وننتظر عذاب الله –كما قال- بكى مجددًا، بكى كثيرًا كثيرًا كأنه خُلِقَ لهذا فقط.

" لا طاقةَ لدينا لنخبر الوطن أنه جار علينا وعليه الاعتذار.. عليه أن يدرك ذلك وحده، ولا قوةَ لدينا لنخبر حبيباتنا أن قول الشعر فيهن ليس دليلًا على الحب وأننا أحقُّ بهم من الشعراء الذين فازوا بهن.. عليهن أن يدركن ذلك وحدهن، لا ضمير لدينا لنخبر الآخر أن حزننا يخصنا وحدنا وأن "اصبر" بإمكاننا أن نخبر بها أنفسنا.. عليه أن يدرك ذلك وحده. نحن لا وقت لدينا لنستعين بغير الله.. على الجميع مِن مَن سبق أن يدركوا ذلك.. وحدهم "

قالها وصمت طويلًا كأنه لم يُخلَق بعد أو فني منذ زمن، ولم أسمع لإبراهيم كلمةٌ أخرى حتى كلماته الأخيرة لي عند الرحيل عنا قبل الطاعون.

الفزع ليس ضيفًا ثقيلًا على مدينة العتمة، يحبونه ويعتبرونه صديقًا يعدهم في كل يومٍ أن يظل صديقهم للغد ويفعل، فارسٌ بعثه الله إليهم ذات يومٍ مباركٍ ليعلمهم أن الحياة قصيرة جدًا ليضيعوها شجعانًا يرتكبون حماقاتٍ تقرُّب من الموت، هكذا إيمانهم.

أكلوا اللحم وشربوا الدم وسمعوا نداءاتِ الإبصار وطبقوها فأبصروا ثم أغمضوا سريعًا يستعيذون من الفساد، هرولوا زحفًا للساحة يحتمون بالإله وحكومته مِن مَن رماها فأطعمهم من جوعٍ، وصرخَ فأسمعهم من صمم، ونصح فأبصرهم من عمى، سكان العتمة كانوا مسوخًا تستحق الموت، الموت فقط وبصورته الأبشع تمامًا في هذه الليلة من تاريخ المدينة، البعض يلملم ما سقط من نقاط سكونه حين تسرَّع وسمع فوضع قيدًا على أذنيه وفمه، الآخر يلملم نقاط جوعه وعطشه حين تهوَّر فأكل وشرب فيمسح الفم لإخفاء ما تبقى من آثار عليه، البعض يحاول المبالغة في خوفه علَّه يعوِّض نقاط هذا بذاك فيمرُّغ الفمَ في الترابِ سجودًا وطلبًا للرحمة، الفم كان بيت الداء في مدينة العتمة ومازال عبر تاريخها الطويل، من يملك التحكم بالفم يَفُزْ، وقد نجحت الحكومة بذلك طوال أجيال ولم ينجح أحد.

دخلوا باب الساحة سُجَّدًا ورائحة الدم تزكم كل الأنوف، الكل يجتهد في إظهار أنه لا يعبأ بالرائحة ولا يدركها، لا حاجة لهم بفقد المزيد من النقاط مع تحريم الشم، صمدوا كثيرًا حتى زفر أحدهم بصوتٍ مسموع بعدما خنقته الرائحة فأخرج كل ما في أحشائه من مخزون رائحة الدم واللحم بالبطون وخارجها، قُتِلَ من فوره فقطع الآخرون الأنفاس ثم ابتهلوا أكثر بـ"سكوتهم" .. وأنصت الجميع للمواطن ثلاثة..

" أيتها الأصفار.. يا شعب مدينة العتمة الصالح، لقد هاجمنا الشيطان، استدعاه الدم الذي يسري داخل الفاسدين منا بعدما كثر رغم كل ما قدَّمه الإله اثنان وصنم الطاعة من تيسيرات، هذا جنته علينا ذنوبنا، لقد اختبركم الإله اثنان بالسماح للشيطان بالدخول إلى هنا وفِعل ما فَعَل، لقد سحركم وجعلكم ترَوْنَ لحظيًا وأنتم الآن عميان طائعون"

قالها فنظر إليه أحدهم خلسةً ولمحه المواطن ثلاثة فأشار صامتًا بقتله مكانه ثم استطرد..
" لا عليكم، إنه فاسدٌ منكم به دم الشيطان ومازال يرى، لقد سحركم وجعلكم تَرَوْن لحظيًا وأنتم الآن عميانٌ، عميانٌ تمامًا، عميانٌ طائعون وصالحون ينتظرهم شقاء العالم القميء، راق لي أنكم لجأتم إلى ساحة الصنم حين شعرتم بالخطر، هذا مؤشر جيد لكَوْن الصلاح مازالت بذرته

فيكم، سنظل ساجدين هنا حتى تنكشف الغمة بإذن الإله اثنين، ليسجد الجميع ويبتهلُ بالصمتِ والخوفِ والنسيان للإله والصنم"

امتثل الجميع للأمر، شعب مدينة العتمة بأكمله ساجدٌ ومغمضٌ وساكنٌ ويتناسى ومُقيَّدٌ من خمس، أشار المواطن أربعة للقوات بالانتشار ومسح المدينة بالكامل بحثًا عن الشيطان ولحمه والدماء، ثم أمر آخرين بتوزيع فُتاتٍ استثنائي على الحضور، حين رأى إبراهيم هذا ضحكَ ضحكًا لا أعلم كيف لم يسمعه الجميع، ثم بكى بكاء لا أعلم كيف لم يسمعه الجميع.

إبراهيم بكى كثيرًا جدًا ليلتها وقال " أنا أحب هنا، أرضنا لم تفعل شيئًا ليفقأوا عينيها ويجعلوها مكان سجودٍ وقيد، إنها مسكينة وتحب، أنا أحب هنا كثيرًا كثيرًا كثيرًا يا الله، أنت رحيمٌ فهبني شيئًا من اثنين، إما أن تبقيني بها غير سجَّادٍ لهم، أو انزعها مني واجعلني أغادر.. اجعلني أغادر يا الله، اجعلني أغادر"

صمتَ حتى ظننته مات، ثم رأيتُه يقوم إليَّ قائلًا:

- آن أن أغادر يا حسن، لن أطالبك مجددًا أن تظل صديقي للغد.

- تـ .. تغادر؟

- هؤلاء القوم ليسوا أهل رغبة، سيهلكون قريبًا، لم تعد لديَّ طاقة أكثر للبقاء والمقاومة، سأرحل إلى الصحراء.

- الصحراء؟

- إنها جزء من هناك، حيث النور والناس والشعر، إنها الجزء الجميل من هناك.. حيث كان إبراهيم.

صمتُّ..

- حين يرسمون لك سبعين طريقًا للسير، سِر نحو الصحراء البعيدةِ التي من المحتمل أن تموت قبل أن تصلها ودعهم ينعتونك بالمتخلف، هناك ستجدُ الطريق الواحد والسبعين، هذا هو الطريق الصحيح.

صمتُّ..

- ترحل معي؟

صمتُّ..

- لا بأس.. كنتُ أعلم أنك لازلت تحب هنا.

- أولا تفعل؟

- للأسف.

- هل لي بسؤال؟

أشار إليَّ بأن أفعل.

- ألا تفخرُ بكل ما فعلت؟

- العمل للفخرِ حابطٌ محبطٌ يا حسن.

-ألا تفخر أنك من هذه الفئة حتى؟

- لا تفخر أنك من فئة، اجعل فئةً تفخر أنك منهم، هذا أولى بالعمل لأجله.

صمتُّ فهمَّ بالرحيل قبل أن أستوقفه مجددًا.

- لماذا اكتفيتَ بوعدي أن أظل صديقًا للغد فقط؟

- في وطنٍ مثل هذا لا تَعِدْ بأكثر من غدٍ واحد.

-أولا نظل أصدقاء في العالم الآخر الذي أخبرتني عنه.. عند الله؟

- نحن لا نعلم ما يكون هناك، وأنا لا أعد بشيءٍ لا أعلمه، عبثٌ إن فعلت.

- ولماذا لم تخبرني أن بإمكاني الرؤية وتركتني أعمى كل هذا الوقت؟

- لا أحد بإمكانه أن يُعمي أحدًا يا حسن، العميان يفعلون بأنفسهم، إن أردت الرؤية كنت سترى حتى لو لم تُخلَق بعينين، انتظرتك تفعل.. ولم تفعل.

- ما كان أغناكَ عن الاختلاف يا إبراهيم.

ابتسم ابتسامةَ من يسخر، استطعت رؤية ذلك.. ثم قال:

- لم أفعل.. أنا أسير، وأسمع، وأقول، وأُحبّ، وأنظر، وأجري، وأحلم، وأطرب، وأكره، وأرغب، وأبكي، وأشتاق، وأشتاق، وأشتاق، وأشكو، وأرجو، وأعجَب، وأتعَب، وأعتَرِض، وأمتَعض، ووآمل، وأطمح، وأربَح، وأشدو، وأنام، وأصحو، وأصحو، وأصحو، وأصفِّق، وأبصق، وأجني، ويُجنىَ عليّ، وأستعين، وأستكين، وأستهين، وأستبين، وأستدين، وأنال، وأفقد، وأفقد، وأفقد، وأحاول، وأيأس، وأعلو، وأغلو، وأنتظر، وأخاف، أنا كائن عادي، عادي فقط، أنتم من شذَّ عن فطرةِ الله واعتبرتم أنفسكم أحجارًا تتنفس.. والله أجلُّ من أن يخلق عبثًا كهذا.

- لا أفهم.

أفزعني ضحكُه المفاجئ، ثم بكاؤه المفاجئ، ثم صمتُه المفاجئ، ثم قال:

- ربما يومًا.. ربما.

- سأفتقدك يا إبراهيم.

- لن أفعل، أتطلع لحياةٍ جديدة بلا فقد، سأجتهد في ذلك.

- لن تفتقد التي؟

لم يجب ثم قال:

- كن بخيرٍ يا صديقي، واحرص أن تجدَ صديقًا لغدِك يومًا ما.

ثم استطرد:

- احرص أن تجلعها تنجو حين يأتيكم العذاب يا حسن، لا تجعل "التي" تهلك وإن كانت تستحق ذلك، أنا لا أستحق ذلك، لديها نقطةٌ بيضاءُ في رأسها ستعرفها منها، هذه وصيتي الوحيدة لك.

صمتُّ ولم أسأل مجددًا، كنتُ أعرفُ أنه سيجيب بلغزٍ جديدٍ لا حاجة لي به، خطا خطواته الأخيرة ليغادر.

- إبراهيم.

استوقفته، فالتفت.

- لن تودِّع مدينة العتمة؟

- ليس مهمًا، لم يعد لديَّ الوقت لأرحل بشكلٍ يفتقدونني بعده، في الواقع لم تعد لديَّ الرغبة.

قالها وابتسم في إشارةٍ فهمتها.

- لن تعود؟

صمت حينًا ثم قال باسمًا في إشارةٍ ذات معنى:

- ربما..

قالها واتجه مجددًا يغادر القبو دون أن يسمع ردي فاستوقفته مجددًا..

- من.. من نحن؟ من نحن بالضبط يا إبراهيم؟

الفصل الحادي عشر

الآن فقط بدا كل شيءٍ منطقيًا، لا أعلم لماذا أخفى عني حقيقتنا كل هذا الوقت.. أننا دود المقابر!

نحن دودٌ في مقبرةٍ من مقابر، في مدينةٍ من مدن، في دولةٍ من دول، في عالمٍ من عوالم، في كونٍ من أكوان، نحن لا شيء، مجرد تخيل أن كل هذه المآسي التي مرَّت بنا لا تمثل في الكون شيئًا هو حقيقة مرعبة، ومجرد تخيل أننا عشنا وآباؤنا كل هذه الأجيال بهذا الوهم هو حقيقة أكثر رعبًا، إبراهيم وحسن والسكير والنحيف وكلهم من مخلوقاتٍ ضخمة تُسمى "البشر" ويوعظون في دنياهم خارج مدينتنا أن مصيرهم سيكون عندنا نأكلهم قبل البعث في عالمٍ آخر، لقد أخبرني المواطن ألفان كل هذا وقال أنه سمعه من زيارات البشر للمقابر بالأعلى وحديثم لذويهم الزوار الذين أكلناهم وقراءة شيء يُسمى "الفاتحة" في خشوع، وكتاباتهم على أشياء صلبةٍ تشبه قلوبَ بعضهم ووجوه بعضٍ آخر تُسمى شواهد قبور، لا أعلم لماذا فزعت من لقب "دودة" لكنه لم يرق لي يومًا منذ تلك الليلة البعيدة حيث كان لقاؤنا الأخير في قبو الملك.. أقصد الدودة الملك.

هل انتظرَ أن أذهب معه للبوابات وأكتشف؟ لم أكن قادرًا على هذا، هل انتظرَ أن أردَّد معه الشعر وأذهب للتعرف على السكِّير وإبراهيم والنحيف الذي يخاف منه؟ لم أكن قادرًا على هذا، هل انتظر أن أحبَّ النور وأسير بلا زحفٍ أو قيد؟ لم أكن قادرًا على هذا، هل انتظر أن أنال "التي" الخاصة بي؟ أنا لم أكن هذه الدودة القادرة على هذا قط.

من يريد أن يعرف سيعرف، ومن يريد أن يعيش سيعيش، ومن يريد أن ينتصر سينتصر، ومن يريد الله سيذهب وسيقربه الله إليه، إبراهيم وحده فعل هذا كله وآذاه أهل مدينة العتمة حتى رحل إلى الصحراء، ربما ستدهسه قدمٌ هناك، لقد أخبرني أن "الناس" ذوو أجسام ضخمةٍ جدًا، رأيتهم حين يُحملون وكنتُ أظنهم خُلقوا هكذا.. أمواتًا لنأكلهم نحن ويكفوننا جميعًا.

حين تخيلت أن هذه الأجسام تمشي وتركض وتضحك وتبكي وتحدث الفوضى وتقول الشعر وتذهب للصحراء وتقطع ستائر الملك هالني أن أعيش بينهم، كيف سيفعل إبراهيم؟ ربما ذهب ليموت هناك وأخفى عني هذا، لقد كان حزينًا جدًا حين غادر، استطعت أن أرى فيه نظرة شخصٍ ذاهب للموت، من الجيد أن يشعر المرء بالأمان في موته، وهو لم يجد أمانًا في مدينة العتمة قط.. ربما وجده تحت أقدام "الناس" .

الأمور باتت أكثر استقرارًا بعد رحيل إبراهيم من البوابات التي يحفظها، عاد أصفار الدود في مدينة العتمة سيرتهم الأولى، بعض الإعدامات لدودٍ رأى، وبعضها لدودٍ شمَّ الدم، وأخرى لدودٍ قالوا أن الصنم سمع أفكاره عن الرغبة في اللحم، الإعدام الجديد بات دهسًا، يلقون حجرًا كبيرًا من علٍ على الدودةِ المقيدةِ بالأسفل فتستوي بالأرض ويتطاير منها الدم الفاسد على وجوه البقية الذين يمرغون وجوههم في التراب فزعًا بعدها ويرجون التوبة من الفأل السيء.

المزيد من السجدات للإله اثنين الذي خلصهم من الشيطان، أصبح الإله اثنان الإله واحد بالمناسبةِ بعدما انتصر على الإله الرحيم في معركةِ اختلفا قبلها وانحاز الإله واحد لنصرةِ مدينة العتمة وتركهم أحياء واختفى الإله الرحيم بعدها للأبد، عشرون دقة جرسٍ قضوها ساجدين حتى تأكد المواطنان ثلاثة وأربعة أن المدينة قد خلت من الخطر، قتلُ النسلِ الجديد كله لأنه تلوث بما حدث، استدعاء الإناث للقصر مجددًا لاستيلاد نسلٍ جديد، ثم مُنع التناسلُ بشكلٍ قاطع بين الدود وبعضه وتولى المهمة المواطنان ثلاثة وأربعة كل مائة دقة جرس بشكل دوري لضمان نقاء نسل العتمة من أي دم وفساد.

زيادة نقاط الجوع والسكون والخوف والنسيان والخطر بشكلٍ خاص، إلزام الدود بعدم الخروج من البيوت مدى الحياة إلا لحصد شجر الوهم والمساعدة في حمل أجساد الزائرين للقصر، المواطن ثلاثة قال إن الإله واحد سيجعل المضخات تصل استنشاقاتها لداخل البيوت وستقوم القوات بنقل اللحم إليهم في البيوت حين يجيء، النسل يُقتَل مجددًا لأنه تلوَّث "لا أحد يعلم بماذا" ، استدعاء الإناث مجددًا، ميلادُ ابنٍ للمواطن ثلاثة وآخر للمواطن أربعة من أنثيين

حبساهما لنفسيهما من المرةِ الأولى ثم قتلُ الأميْن بعد الإنجاب، أنا سكنتُ قبو القصر وأحببتُ مراقبة المدينة ومازلتُ أخشى الذهاب للبوابات.. كل هذا كان كافيًا لتعيش مدينة العتمة عمرًا أطول.

مائتا دقة جرسٍ قبل أن يأتي الزائر الأخير، لم يعد هناك ذكرٌ للشيطان الذي ألقى اللحم وطالبهم أن يروا ولا حتى في مخفي نفوسهم، إنهم يحبون النسيان جدًا هنا وهذا مفيدٌ ليعيشوا أطول، لما جاء الزائرُ الأخير كان سمينًا جدًا فتم استدعاء كل أهل المدينة لحمله للقصر، حين قامت القوات بتقطيعه ووضعه على باب الحجرة والانصراف انتظارًا لرسل الإله اثنين بنقله لداخل الحجرة المقدسة قام المواطن ثلاثة والمواطن أربعة بنقله للداخل دون أن يراهم أحد، هكذا كان ظنهما ولم يرياني أراقبهما كما علمني إبراهيم، حين فات على هذا اليوم خمسون دقة جرس لم يخرج فيها المواطنان للشعب ولم يستدعيا القوات لنيل نصيبها من اللحم بات الأمر مزعجًا، حين أوشك الجوع أن يقتل القوات أرسلوا فردًا منهم لحجرة الإله اثنين يستجديه لرزقهم بنصيبهم، غاب الفرد بالحجرة عشرين دقة جرس ولم يظهر، آخر.. واختفى عشرين مثلها، آخر ثم آخر ثم آخر.. والجميع يختفي عشرين دقة جرس.

حين قرَّرت القوات دخول الحجرة جماعةً واحدة اختفوا هناك خمسين دقة جرس ولم يظهر منهم أحد، كانت هذه هي المرة الأولى التي شعرتُ فيها أنني لستُ ابنًا لمدينة العتمة، اللحم الذي سرقته يكفيني وزيادة، لم يبقَ هناك بالمدينة فردٌ واحدٌ من القوات، الشعب فقط ينتظر بالبيوت حتى مات كثيرون من الجوع وفضلوا ذلك على أن يخرجوا لاستكشاف الأمر، ولمَّا قرَّر البقية الخروج هاموا في المدينة يبحثون عن شيءٍ يؤكل أو مضخة تعطيهم وهمًا بذلك، دفعهم عجزهم للقصر بعد السجودِ بالساحةِ أيامًا للصنمِ يغيثهم، لم يمنعهم أحد، جالوا فيه بحثًا عن موتٍ مريحٍ أكثر، وحين قادتهم الإناث لحجرة الإله اثنين مصدر عتمة المدينة دخلوها جماعة واحدة.. ثم اختفى الجميع للأبد.

كانت تسير بينهم مع القطيع، خجلى وتخاف أكثر من جميعهم ولا تدري أنها تحمل نقطةً بيضاء في الرأس، استطعت أن أشمَّ رائحته بها رغم رحيله ورغم عدم نيله ورغم الزحام، سحبتها من قدميها الخلفيتين بقوةٍ دون أن يلحظني أحد ثم جعلتها في القبو وأطعمتها مما سرقتُه، خوفها وسكونها وعيناها المغمضتان اللتان كانت تظنهما مفقوءتين جعلوها لا تعترض على شيء.. لقد أنقذت "التي" من الهلاك كما أوصاني ووعدتُه.

هلكَ شعب العتمة، صدقت نبوءة إبراهيم فيهم وجاءهم الطاعون، حين قررت دخول الحجرة واستكشاف اللعنة وجدت الجميع أمواتًا، الشعب والقوات والمواطنين ثلاثة وأربعة وآثار اللحم والدم منثورة بكل مكان، اقتربتُ من مخزن اللحم فقتلتني الرائحة النتنة ومنظر الدم الأسود، الزائر الأخير كان ذا لحمٍ فاسدٍ ودمٍ من ماء الشيطان بكل تأكيد ليقتل كل هؤلاء، وحين قادتني قدماي للبوابة لأول مرةٍ لاستكشاف الأمر على مضضٍ ورهبة، سمعت صوتًا بالخارج يقول " الآن نضع الوردَ على قبر الرئيس العربي فلان الفلاني " .

أي فسادٍ ارتكبته حكومة مدينة العتمة وشعبها لتكون نهايتهم بهذه البشاعة بدمٍ ولحمٍ فاسدٍ لشيء يُدعى رئيس عربي؟ أي ذنب؟

لقد مضى على هذه الليلة أعوامٌ طِوالٌ لم أعد أهتم بتعدادها، صدقت نبوءة إبراهيم مجددًا حين قال أنني سأعيش طويلًا طويلًا، لكنه أبدًا لم يصدق حين أخبرني أنني سأنسى كل شيءٍ في الهرم، لقد أخفقَ أخيرًا في شيء، أتعجب من نفسي كثيرًا كيف كنتُ أجتهدُ بالنسيان في هذا الزمن القديمِ رغم امتلاكي ذاكرةً بهذه القوةِ سَرَدَت الحكايةَ كلها دون إنقاص، مازلتُ ذاكرًا كل شيءٍ وأحكيه الآن ولو لنفسي وللفراغ، وسأظل حتى ألحق بالشعب والحكومة، في كل مرة يأتي زائرٌ جديدٌ وآكله وحدي عند البوابة ثم أطعم منه "التي" في القبو أتمنى لو يكون رئيسًا عربيًا يلحقنا بهم، شعب العتمة كان قادرًا على إدراك أن الصبر على الجوع ليس بطولة في وقتٍ مبكرٍ أكثر، ربما كان سيتغير شيءٌ ما لو دخلوا القصر قبل جثة الرئيس العربي.. ربما.

أخبرتُها كلَ شيء عنه وعن نضاله وعن سخطه وعن جنونه وعن تهوره.. وعن عشقه لها خاصةً ليلةَ الشيطان والدم، ليالٍ طوالٍ قضيتها أحكي عن إبراهيم الذي غادر إلى صحراءِ الناس ولم يعد وما زلنا ننتظره حتى رأيت بالنهايةِ الماء الذي ينزل من عينيها، لقد كان مُهابًا حتى في الحديثِ عنه، كان مؤلمًا جدًا أن ينالها وتحبه دون أن يعلم ذلك وبعد انتهاء القصة، ولمَّا أوشكنا على الموتِ مللًا قالت أن علينا أن نجعل مدينة العتمة كما أرادها إبراهيم، لمَّا تعجَّبت من نطقها أخيرًا قالت أن وصيته تتضمن الحفاظ عليها من الهلاك، ووصيتها أن نحفظ وصيته ونحفظ مدينة العتمة بها.. ثم طالبتني أن نتناسل ونصنع شعبًا يحبه.

صمتُّ كما كنتُ أصمتُ أمامه، لم يخطر ببالي لحظةً واحدةً في حياتي كلِها ان أكون من يجدِّدُ شعبَ مدينة العتمة بأكمله، هل سيغفر لي إبراهيم ذلك حين تصيب "ربما" ويعود ذات يوم؟ هل تكون "التي" خاصتي بعد هذا كله؟ شعورٌ مرعبٌ أنني أفكر في فعلِ هذا، هل يُسعدُه أن يعود ليرى شعبًا يحب النورَ ونطقَ كلماتٍ تتعدى العشرين ويُقدِّسُ ذكراه؟ أم يسعدُه أكثر أن يعودَ فيرى عجوزين هم صديقُه ومحبوبته ونموتُ ثلاثتنا في هدوءٍ دون أن يشعر العالمُ بالخارج أن شيئًا منه قد نقص؟.. لا أعلم.. في النهايةِ تناسلنا.

لا أعلم لماذا لم أكره القصة رغم كل ما مر بها وبنا، حين أنجبنا الجدد وازدادوا بنسلهم وجعلوني و "التي" مُقدَّسَيْن فيهم أصبحتُ أقل سخطًا على كل تلك المآسي التي أوصلتنا إلى هنا، نهاية الحدث أطول عمرًا منه، وهذا النسل الجديد قد نشأ على النور المار من فتحاتٍ أحدثتها مع التي في جدارِ المقبرة، لقد مضت سنونٌ عشناها معًا أدخلنا النور وكسرنا المقصلة وهدمنا الأسوار وجعلنا المضخات آثارًا تُزار.. وتناسلنا لإنجاب الكثير من الجُدد، ثم سميناها "المدينة" .. المدينة فقط، لم تعد العتمة ملائمةً الآن بعد هذا كله، إبراهيم كان محقًا حين عشق تلك "التي" ورأى فيها قدرةً على صنعِ مجدٍ وإنشاء مدينةٍ من العدم، لا أعلم إن كان قد رأى ذلك في هذا الزمن القديم أم لا، لكنني وإياها والجدد ومدينة العتمة مدينون لهذا النبيل الراحل إلى الصحراء قديمًا بكل شيء، أنا الآن العجوز الجالسُ إلى البيت الأخير، بيته وبيت "ربما" التي

قالها يومًا، مازلت أنتظر أن يأتينا يومًا ويفلت من أقدام البشر بالأعلى، ربما يحجمون عن دهسه لو علموا أن هذا الكائن الدقيق قد ترك خلفه مدينةً تُبادُ وتُنشَأ.. ربما.

لقد افتقدتُ "المواطن" إبراهيم وتفرُّده جدًا وأنا الذي لم يفتقد يومًا، قصته فرضت ذلك، ولم تكن لديه الرغبة في أن يفتقدوه، ورغم كل ما مضى من السنوات مازلتُ ذاكرًا بسمته ذات المعنى وقوله "ربما" .. وآملًا فيهما أنني لن أموت وحيدًا هنا.. ربما.

خاتمة

- المواطن ستةُ سيلقي خطابًا عن الإله واحد.

- لنُسرِع بالزحف.

- احرص ألا تترك قيدَك، المُسلحون سيمرون علينا فردًا فردًا ليتأكدوا أن الجميعَ ملتزمٌ بها، سيدهسون الناسي.

" أيها "النَعَمات" .. يا شعبَ "مدينة الخَرَسِ" المطيع، لقد قرَّر الإله واحد مكافأة كلِ "نَعَمٍ" فيكم بجرعةِ استنشاقٍ إضافيةٍ من الذل المقدس تقربه أكثر من العالم المقيت مطمحنا جميعًا، جهودكم في صنع صنم "ربما" والسجود له مع إلهنا "حسن" وإلهنا واحد، ولذكرى أجدادنا "الجُدد" العظام الذين بنوه في هذا الزمن الغابر قبل عشرين ألف دقة جرس وأسسوا لكل هذا الظلامِ والخَرَسِ المحيطِ بنا وقتلوا النور والكلامَ للأبد هي جهودٌ مشكورة قدَّرها الإله واحد والإله "حسن" كثيرًا، وهما إذ يرجوان سرعة وصولكم لعالمنا المقيت سريعًا فقد تقرَّر وضع حدٍ أقصى للكلماتِ اليوميةِ ألا تزيد عن أربعِ كلماتٍ يوميةٍ بعدما كانت عشر، والكلماتُ الأربعُ هن شعارنا المحفوظ، "المُسلحون.. مدينة الخَرَس.. الإلهان." على أن يتم استدعاؤكم لإقامة أسوارٍ إضافيةٍ حول بيتِ كلِ "نَعَمٍ" فيكم يُشرف عليها المسلحون.. يدُ الإلهين الرحيمة فينا، هذا كل شيءٍ فاسجدوا لإلهيكم وصنمكم واعبدوا، المُسلحون.. مدينةُ الخَرَس.. الإلهان

تمت

الرياض ٢٠١٦/١٢/٢٦

بعد واحدٍ وخمسين يومًا من شيءٍ ما